الفصل الرابع

أهل الهند

«الجنس عند أهل الهند»

«لو سئلت أين عرف الفكر الإنساني أجمل تفتح لأثمن مواهبه، وأين أوغل على أبعد مدى في تأمل كبريات المسائل الميتافيزيقية، فوصل إلى حلول لبعض هذه المسائل الجديرة بأن تخطف أبصار حتى أولئك الذين درسوا أفلاطون وكنت، لقلت: الهند. ولو سألت نفسي أي أدب من الآداب يستطيع أن يمدنا نحن الأوربيين - الذين لم نكن نتغذى إلا من الفكر اليوناني والروماني - بأحسن ما من شأنه أن يُنَقّي حياتنا الداخلية، وأن يوسع أفقها، وأن يهب لها طابعاً أكثر شمولاً وإنسانية بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، وأن يهيئنا لا لحياة هذا العالم فحسب، بل كذلك لحياة سامية خالدة فإن ذهني ينصرف مرة أخرى إلى الهند».

«ماكس مولر»

تسلسل زمني

من ٢٥٠٠ حتى ١٥٠٠ ق.م	ثقافة وادي السند (الدرافيديين، موهنجو - دارو)
نحو ١٥٠٠ ق.م	الغزو الآري (الهندو - آريون)
نحو ١٥٠٠ ق.م	قانون مانو (وقد ثَبِّتَ كتابةً في القرن الثالث ق.م)
القرن الثامن ق.م	تدوين الفيدا
نحو ٦٠٠ ق.م	بداية الجانية أو الجائية[1] (مذهب تطهير النفس بالاعنف - المترجم - (مذهب اهيمسا)
من ٥٦٣ حتى ٤٨٠ ق.م	بوذا
القرن الثالث بعد الميلاد	الـ «كاما - سوترا» لفاتسيانانا - VATSYÂYANA

١- اليانية (في قاموس المنهل)، الجينية، الجيناوية، الجينوية، الجائية الخ.. ذلك لأن المترجمين لم يأخذوا اللفظ الهندي من مصدره بل أخذوه عن اللغات: الإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية... - المترجم.

أهل الهند

«بين أحضان الحبيبة»

تعني كلمة موهنجو - دارو في اللغة السندية، إحدى لغات الهند المتعددة، «موطن الأموات» ويدل هذا الاسم على مجموعة من الخرائب والأطلال الشاسعة المنتشرة على امتداد مجرى نهر السند الأدنى. ترى ما الاسم الذي كان قد أُطْلِقَ، فعلاً، على المدينة التي كشف النقاب عنها علماء الآثار المعاصرون، تلك المدينة التي كانت قبل ٤٥٠٠ سنة تزخر بالحياة وتعيش في نشاط كبير؟ إننا نجهل ذلك، جل ما نعرفه أن هذه المدينة قد احتفظت باسم المكان: «موهنجو - دارو».

نُظّمت هذه المدينة وفق مخطط دقيق. فالشوارع تتقاطع بزوايا قائمة، وتوفرت في الساحات العامة وفي داخل البيوت عيون المياه التي تغذيها أنابيب فخارية تصل بمياهها الجارية إلى غرف الحمامات وغرف النظافة في أماكن السكن والإقامة، وقد تم تصريف المياه الفائضة بإتقان بالغ. واحتوت «موهنجو - دارو» منذ الألف الثالث ق.م، إضافة إلى مخازن الحبوب، على حمامات عامة فسيحة وأحواض صغيرة يلعب فيها الأطفال ويصخبون.

وتسمح لنا أدوات الاستعمال اليومي، التي وجدت بين أنقاض المنازل ذات الطابقين، بإقامة الدليل على أن مستوى المعيشة في موهنجو - دارو كان رفيعاً. غير أن طبيعة مخلفات تلك الحضارة لا تزودنا بإيضاحات كافية حول عقائد السكان وأخلاقهم. حتى الجذع المتبقي من تمثال فتىً عارٍ، والتماثيل البرونزية الصغيرة لراقصات عاريات، لا تزودنا أيضاً بإيضاح ما حولَ الدور الذي كانت تلعبه. ترى هل تعود هذه التماثيل إلى آلهة أو إلى كائنات بشرية تزهو بجمال أجسادها؟ وهذا التمثال من حجر الطلق لرجل يرتدي ثيابه الموشاة الغنية التطريز، ذي الوجه المصعر الخد، الجامد التعبير والمؤطر بلحية موزعة بعناية، والشفتين الغليظتين المكتنزتين، وفتحة عينيه الضيقتين، ترى أكان هذا الرجل ملكاً - كاهناً أم مواطناً ذا شأن من مواطني المدينة؟

إننا لعلى جهل مطبق بما كانت عليه المراتب الاجتماعية في موهنجو - دارو. ذلك لأننا لم نستطع، حتى الآن، ترجمة الرموز الكتابية التي تغطي القطع الفخارية أو معرفة النقوش على الأختام والتمائم التي عثرنا عليها بين الأنقاض. بعض من هذه الصور الخطية يمثل رسوماً زخرفيه وتزيينات وصلباناً، وصلباناً معقوفة «سواستيكا»، ومشابك، ودواليب وبعضها الآخر يمثل مسوخاً حراجية أو مائية في

أوضاع مهددة، أو حيوانات محلية تتقاتل فيما بينها كالأبقار (الدربانية ذات السنم) والخراتيت والفيلة والتماسيح والنمور. أما «الأم الكبرى» فكانت تظهر، في هذه الرموز الخرافية بأوضاع متنوعة أو على شكل تماثيل صغيرة: ففي هذه الأعمال، دون أدنى شك، نجد الرموز القديم للأنوثة المؤلهة التي سيطرت لفترة طويلة على الجنس القوي، وهي تتلقى منه، بوساطة الكاهنات تضحيته العذبة بنطفه الذكرية.

تبدو «موهنجو - دارو» أنها كانت مدينة آمنة مسالمة، إذ لعبت فيها النساء دوراً بالغ الأهمية. فنحن لم نكشف فيها إلا ما ندر من الأسلحة ومن رموز الذكورة: إن بعض الأشجار والعمد المنتصبة، التي تبرز بين رموز كتابية وبعض الحجارة القضيبية، لا تكفي للدلالة على أن الشعب الذي كان يعيش على ضفاف السند قد مارس بكثرة عبادة القضيب كما مارسها بكثرة في وقت لاحق.

وقد كشف النقاب، في خرب المدينة، عن العديد من علب الأطفال، وهذا ما يسمح لنا بأن نستنتج ما كان يوليه الآباء والأمهات للأبناء من عطف ورعاية. وكانت نسخ العربات وحيوانات الجر المبسطة من أكثر هذه اللعب شيوعاً وتكراراً، إضافة إلى أقفاص العصافير، إذ وقع بين أيدينا منحوتة صغيرة لثور له رأس متحرك أبدع الصانع صنعها، ومنحوتة أخرى لقرد لقائمتيه الخلفيتين مفاصل متحركة، مما يدلنا بوضوح، على أن الأهل كانوا يؤالفون ما بين أبنائهم والواقع بوساطة هذه الدمى - المنحوتات.

ومن المستحيل، في كل حال، إزالة الغموض الذي يكتنف حياة أقوام السند هذه، الخبيرة في صهر الذهب، والفضة والنحاس والبرونز وصنعها منذ عصر ما قبل التاريخ، بمقارنتها بما أسفرت عنه نتائج التنقيبات الأخرى التي تمت في الأراضي الهندية، بيد أننا نستطيع أن نعد دمار المدن والمستعمرات المنتمية إلى حضارة السند هذه، والذي حدث في القرن الخامس عشر ق.م قد وجه ضربة قاضية إلى عبادة «الأم الكبرى» في جميع أصقاع الهند باستثناء بعض جماعات الأرياف التي حافظت على ما بقي منها.

ترى هل كان السكان في منطقة «موهنجو - دارو» من الدرافيديين أي: أنهم كانوا في عداد غزاة الهند الأوائل؟ ما زال من المتعذر علينا إقامة الدليل على ذلك. جل ما نعرفه عن هؤلاء الدرافيديين، ذوي البشرة السمراء الداكنة والأنوف الفطس، أن لباعتهم تجارة نشطة مع سكان الرافدين ومصر وأنهم قد امتازوا بنزاهتهم واستقامتهم، على الرغم من استغنائهم الدائم عن كشوف الحسابات والعقود معتمدين على ذاكرتهم محط اعتزازهم. وهم يؤكدون أن غياب كل شكل من أشكال الخلاف فيما بينهم دليل على استقامتهم وبرهان عليها.

ولكن سرعان ما انتهى أمر استقلال الدرافيديين وحضارتهم عندما انقضت عليهم القبائل الزاحفة من الشمال فاكتسحت أراضيهم واستولت عليها. كان اسم هؤلاء المتجبرين آريا، «الآريين». سلاحهم القسي والسهام والفؤوس والرماح. يتنادون إلى ساحات القتال ويتقاطرون إليها على عرباتهم الحربية. تعني كلمة آريا في لغتهم:

النبلاء، لكن هؤلاء المحاربين والرعاة الرحالة قد أثْرُوا بِقَطْعِهِم للطرق والسلب والنهب في خلال تجوالهم وشرودهم، فما أن استقر بهم المقام وتحضروا وأثروا حتى غدوا أشرافاً ونبلاء، والكلمة التي كانت، بالنسبة لهم، تعني، في البدء، حرباً وكان لها معنى محدداً: «الرغبة في مزيد من الأبقار» صارت، في وقت لاحق، تعني: «الرغبة في مزيد من الأراضي» حصراً.

أخضع الآريون وادي السند وتقاسموا الأرض فيما بينهم، مع مراعاة لاستقلال كل قبيلة من قبائلهم واحترامه. فاستبعدوا السكان المقهورين واستبدوا لهم، كانوا يتميزون عنهم من الناحية الجسدية، إذ كانوا أطول قامة وأصلب عوداً وأمهر في استعمال السلاح. وعزموا على البقاء معاً بمعزل عن الآخرين، وعلى التزاوج فيما بينهم لتحافظ ذريتهم على الفوارق الجسدية الواضحة كيلا تضيع ذاتيتهم العنصرية، إذ كانوا يفخرون بكون بشرتهم أشد نصوعاً من بشرة السكان الأصليين الخاضعين لهم.

وقد كان للتمييز القائم على لون البشرة الـ «فازنا» التأثير الحاسم في تطور الأخلاق. ولا ريب في أن الآريين قد تبنوا عدداً، لا بأس به، من معتقدات المغلوبين وعلومهم، بيد أنهم لم يتزاوجوا معهم، بل ظلوا الأسياد والمحاربين وأصحاب الملك، ورغبوا عن التجارة فتركوها للتجار من السكان الأصليين، وتخلوا عن الصناعات الحرفية لأصحابها، ورأوا أن التمتع الكسول بالفوائد والأرباح دليل نفوذ وامتياز سلطان. ورغبة منهم في الاحتفاظ، أبداً، بسلطانهم هذا، وزعوا السكان إلى طبقات متمايزة: في المقام الأول يأتي «الكشاترية» أو المقاتلون، يليهم الفلاحون والصناع، ثم أفراد الطبقات المستبعدة وأخيراً «الباريا» أو «المنبوذون» محط احتقار الجميع.

وكما كانت الحال بالنسبة للأعمال التجارية، فإن الدرافيديين من السكان الأصليين لم يدونوا معارفهم كتابة ويثبِّتوها. لكنهم امتثلوا لتعاليمهم الناظمة لعقيدتهم وأخلاقهم بدقة متناهية حتى لكأنهم قد سجلوها بأبجدية كانت في متناول أيديهم، وما أخذه الآريون عن هذه التعاليم كان ينتقل شفاهاً من جيل إلى جيل، تلك هي «الفيدا» أي المعرفة. كما أن الـ «فيدات» كتب المعرفة، لم تصبح كتباً إلا بعد تدوينها باللغة السنسكريتية، لغة المنتصرين. وقد ساد الاعتقاد، ردحاً من الزمن طويلاً، أن الفيدات كانت مؤلفاً أصيلاً صادراً عن الشعوب التي يطلق عليها الهندو - آرية، غير أن العلماء قد أثبتوا أن طابع «كتب المعرفة» وخاصيتها على صلة وثيقة مع شروط الحياة الهندية وظروفها، وأن مضمونها لا يتفق مع معطيات فروع أخرى من أسرة الشعوب الهندو - أوروبية التي شاءت ظروف هجراتها القتالية أن تحملها إلى مناطق أخرى.

كان يحرك السواد الأعظم من الشعوب الآرية ويبعث الحياة فيها، تفاؤلية نشطة وفعالة ورغبة في العيش من أجل الذات مع استخفاف بالآخرين، هذه المشاعر نلقاها في الفيدا وبخاصة في قسمها القديم الذي يمجد اندارا، ملك الآلهة. البطل المقدام

«محطم الأعداء» و «قاتل التنانين»، غير أن الفيدات تعبر، بخاصة عن تشاؤمية عميقة الغور، فهي ترفض مسرات الحياة ولذاتها وتسعى إلى كشف الغموض الشامل من طريق تبادل الأفكار والتأمل الذاتي.

إن الفيدات، مثلما انتقلت إلينا بشكلها المدون بعد زوال سلطة الهندو - آريين، لم تذكر شيئاً عن الأمومية ولا عن حقوق النساء. ولم يبق فيها إلا بعض البينات المتناقضة كلياً مع أخلاق الغزاة الرحل. وهكذا فإن الـ رج - فيدا «RIG-VIDA» «معرفة الترانيم المقدسة» قد سنت، من بين ما سنته، قوانين مثل: «لتكن الزوجة سيدة على حماتها بلا منازع، والسيدة المطلقة على حميها، والسيدة على أخوة زوجها. «أن الرج - فيدا والـ أتهارفا - فيدا» علم الصيغ السحرية، لتدلنا على أن النساء، قبل غزو الآريين للهند، كن يستطعن التجوال بملء حريتهن سواء كن متزوجات أو عوازب، وكن يستطعن حضور الاجتماعات والمشاركة في الاحتفالات مع الرجال جنباً إلى جنب، وكن يمتلكن الأرض والأموال فيتوافد عليهن المعجبون على أمل الفوز بهن، وكان بمقدورهن اختيار عشاقهن وأزواجهن حسب مشيئتهن. ففي العهد السابق لمجيء الآريين، كانت الخطوة الأولى، بغية إبرام الزواج، تأتي بمبادرة من المرأة أو أسرتها ولا تأتي عن طريق الرجل. وكانت التعاليم تقضي بأن يكون الرجل جديراً بأمه وأهلاً لما تغذى به من رضاع. فقد منعت الفيدات عن الزوجات المشاركة في القرابين العامة الشائعة أو القيام بها، بوصفها عرفاً تقليدياً رسمياً. ثم أن الزوجة كانت تحضر الاحتفالات الدينية برفقة زوجها، ذلك أن حقوق النساء وامتيازاتهن قد انتهى أمرها عندما فرض الراجا (RAJAHS - رؤساء القبائل)، رؤساء مختلف القبائل أصحاب السيادة المطلقة، قوانين الزواج الشائعة عند القبائل الرحل وإلزام الرجل، بخاصة، بأن يغتصب زوجة المستقبل بالقوة أو أن يحصل عليها بمبلغ من المال. وترى النساء الآريات في ذلك شرفاً عظيماً ويفخرن بكونهن، والحال هذه، هدفاً للاختطاف أو سلعة للشراء. وإنه لأمر جدير بالتقدير أن يشتري الرجل أو يختطف العديد من النساء: إنه لأمر يسجل للرجل بالفخر أن يعول زوجات كثيرات، وأن ينقل إلى الخَلَفِ قوته. فقد تمتع الراجا وأكثر أقربائهم امتيازاً بحق امتلاك زوجاتهم وأبنائهم، ولهم أن يقرروا، إذا ما طاب لهم، أن يبيعوهم أو يرموا بهم في عرض الطريق. قبل مجيء الآريين كان بمقدور المرأة الأيم أن تتزوج وفق مشيئتها إن هي رغبت في الزواج مجدداً.

أما الآن فليس الرجل هو الذي يصاهر عائلة زوجه بالتحاقه بعائلتها ودخوله إلى بيت أهلها، بل المرأة هي التي تدخل بيت الزوج لتخضع إلى حق «أبوي صارم جلبه الآريون وفرضوه على السكان المحليين». فثمة طبقة جديدة تسعى إلى فرض أخلاقها، تلك هي طبقة البراهمة أي «الكهنة الذين يعرفون» التي تشكلت عندما اتخذت الديانة أشكالها الدقيقة المحددة وكان البراهمة حماة الدين والناطقون بلسانه والمؤتمنون عليه، هم الشفعاء ما بين الآلهة والراجا الطبقة العليا، من جهة، والوسطاء ما بين طبقة الأمراء والمحاربين والطبقات الدنيا من جهة ثانية.

لم تسمح الوثائق المتوفرة بين أيدينا بإقامة الدليل على أن طبقة البراهمة صاحبة الامتياز قد تشكلت من ذرية المنشدين - الكهنة الذين كانوا ينشدون الأناشيد القديمة ويروون قصص الماضي المقدس لسادة البلد الجدد - إذ تناولت طبقة البراهمة هذه الوثائق بالتبديل والتحوير انصياعاً لأوامر سادتهم الذين كيفوا القوانين الأخلاقية والدينية بما يتناسب ومصالحهم وينسجم مع تقاليدهم. فزعم البراهمة أنهم قد استحقوا هذا الامتياز بالوراثة وتفاخروا إذ ولدوا من رأس بوروشا، الكائن البدئي المزود بألف رأس وألف قدم، وأن «كرامتهم الروحية» هذه، التي خُصُّوا بها بالولادة، «جزء من طبيعتهم الأكثر غوراً».

ترأس البراهمة، بصفتهم كهنة، العبادة التي ما برحت تسيطر عليها العقيدة البدائية التي تلزم الإنسان بتقديم الهبات إلى الآلهة بغية الفوز برضاها ورحمتها وحمايتها. وما دامت الصلوات لا تفي بالغرض فقد طالبت الآلهة بالهدايا والهبات العينية الملموسة لقاء عطفها وحظوتها.

وكلما ازدادت معرفة هؤلاء الكهنة في تعزيز ودعم أماني الواهبين وشكاواهم بالرقى والتعازيم المكتنفة بالأسرار والحيل السحرية البارعة، تبددت شكوك المؤمنين حول صحة مزاعم البراهمة بضرورة تناول القرابين. ثم أن كاهناً كهذا كان يهتف، أثناء تناوله القربان: «اذهب إلى السماء وأبعث فيها الغيث».. والمُزْنَة قد «تأتي أحياناً لكهنا لا تلبث أن تنهمر في آخر المطاف، شريطة أن تتكرر الأضحيات لفترة من الوقت طويلة». وقد آمن الهنود، منذ أمد بعيد، أن أحد الأسلاف، الموغلين في القدم، من النبات أو الحيوان (إذ تصلح صورته رمزاً للقبيلة، بل «شعاراً» مشتركاً وعاماً، إن صح التعبير)، يتحكم بمصائر الأفراد بوساطة قوى فوق طبيعية. كما آمنوا أيضاً بأن الآلهة كانت قوى من قوى الطبيعة، مثل أجني AGNI - النار، «روح العالم»، اوندارا، إله العواصف المخصبة الخير، الذي غدا، في وقت لاحق، ملك الآلهة. والإنسان، أينما حل، كان مهدداً بالأرواح تظهر له على شكل من التجليات الغريبة: كالأفاعي والمسوخ الكؤودة. ولا تدفع عنه الفناء المطلق إلا قدراته على الإنجاب حصراً. والحال هذه فإن في توالد الرجال والنساء وتزاوجهم شكل من أشكال الدفاع عن النفس ضد القوى اللا دنيوية، أسوة بما قامت به الأرض الأم مع السماء إذ ومض البرق وانهل المطر مدراراً.

غير أن البراهمة، أولئك الذين يحملون حبلاً مقدساً، كدليل بَيِّن على أصلهم الإلهي، هم الذين كانوا ينظمون الأخلاق ويخضعون العلاقات الجنسية إلى قوانين ما برحت تزداد قسوة وصرامة. ولما كانوا عاجزين عن منع الغرائز الطبيعية من أن تنال كفايتها من الارتواء، على الرغم من الوعيد وإنزال العقاب، سنوا قانون الحياة الجنسية والدينية ما داموا هم وحدهم الذين يعرفون ما يروق للآلهة وما اختص به بنو الإنسان.

واتسع علم البراهمة واتسعت معرفتهم ليشملا الحياة بعد الموت وبقاء الروح واستمراريتها على شكل شبح ينتاب مكان إقامته القديم. فعلى الدوام عَذَّبَ الإنسان، كقصاص ينزل به لخطيئة ارتكبها، خوف من أن الأموات يهيمون على وجوههم، لا ينعمون بالسكينة ولا يهدأ لهم بال. إن الخوف من «تكرار الموت»، والهلع ممن لا يجد «عالم آبائه» «فيغدو» مرةً أخرى، غذاءً لإله الموت، قد زرع في الإنسان فكرة مروعة عن «موت لا ينتهي» وفقدان لثروة طائلة يتكرر على الدوام، وتمزيق «لا ينقطع لشمل العائلة»، ذلك لأن «كل من رحل إلى ذلك العالم الآخر دون أن يتحرر من الموت، سيولد ليموت في ذاك العالم الآخر بغير انقطاع». وقد ينتج عن هذا التصور المقلق للموت المتكرر مبدأ «الكارما»[1] (KARMA) المثير للجزع، أنه قانون لا يرحم، إذ ينص على أن كل عمل من الأعمال لا بد لصاحبه من أن ينال جزاءه، ثواباً يكون أو عقاباً، إما في حياته التي يحيا أو في تقمصه وتناسخه، وأن كل من يرغب في التحرر من الموت المتكرر لن يجديه نفعاً لا السلطان ولا الغنى.. ما دام الحال هكذا، فلم يبق أمام الإنسان، القادر على بذل سلطانه وما له في سبيل هذا الخلاص، إلا سبيل واحد: «ذلك أن التضحية التي بذلها في هذا العالم، تكون في العالم الآخر اكينونته عينها، أتمانه[2] - SON ATMAN - فإذا ما رحل «ذاك الذي يعرف ذلك» عن هذا العالم، يلاحقه قربانه الذي ضحى به، وهو يناديه: «تعال هذا أنا، إنني أنت نفسك». وعلى هذا لا بد من أن يتقمص اتمان براهمان[3] الكل المطلق. وفي سبيل ذلك ينبغي عليه أن يعمل على تطهير ذاته بالشكل الذي يرتئيه الكهنة، وعليه، أيضاً، أن يتخلص من جميع شروره، ويسلخها عنه كما تسلخ الأفعى عنها جلدها وترميه، فيغدو جوهره تركيباً من الترانيم المقدسة والحِكَم والأناشيد والقرابين».

بيد أن الترانيم المقدسة والحكم والأناشيد قد توارثها الأبناء عن الآباء في عائلات البراهمة. وقد ملك حراس المعرفة وحماتها هؤلاء مفاتيح «عالم السماء». فكان بمستطاع حكمتهم وحدها تحديد ما للكارما، بالنسبة إلى قانون الموت، من فضل وقيمة، فلم يكن للبراهمي، والحال هذه، حاجة قط إلى أن يسير سيرة مثالية ليحق له، من ثم، أن يفخر بحكمته ويزهو بثرائه وأملاكه: «فيما يتعلق بالذهب فإن لي منه

١- كارما: قانون العمل أو قانون السببية في دنيا الروح، وهو أسمى قوانين العالم وأبشعها (قصة الحضارة - المترجم).

١- اتمان: أن اشتقاق هذه الكلمة موضع شك، فيظهر (من سفر رج - فيدا القسم العاشر ص١٦) أن معناها في الأصل نفس، ثم أصبح معناها الجوهر الحيوي، ثم أصبح الروح، أنها نفس النفوس كلها وروح الأرواح كلها، والمطلق الذي لا مادة له ولا صورة، والذي ننغمس فيه بأنفسنا جميعاً إذا نسينا أنفسنا كل النسيان (قصة الحضارة - المترجم).

٢- براهمان: روح العالم غير المشخصة، ويجب تمييزها من لفظة براهما الذي هو أكثر منها تشخيصاً، وهو احد الثالوث الإلهي (براهما وفشنو وشيفا) كما يجب تمييزها من برهمي، التي تدل على العضو من طبقة الكهنة، ومع ذلك فليس التمييز بين اللفظتين الأوليتين بملحوظ دائماً، فقد نجد براهما مستعملة بمعنى براهمان. (قصة الحضارة - المترجم) ومنه الاتمان: جوهر الفرد، والبراهمان: جوهر الوجود.

نصيباً، ومن الأبقار والخيول والعبيد والثياب والأغطية فإن لي منها نصيباً أيضاً». فكان الناس يحتفون بثراء البراهمي دونما شعور بالغيرة أو الحسد.

وقد أباحت سلطة البراهمة الروحية والدينية، وسيادتهم على أفردا الشعب، لطبقة الراجا ومحاربيهم، السيطرة على إقطاعاتهم وفق هواهم، فكانوا يعيشون في قصور فاخرة تحف بهم حاشية من الأمراء، وهم على جهل بكل مستلزمات الأخلاق، فأباحوا لأنفسهم غشيان المحارم واللواطة. وعدوها ضرباً من الألعاب المشروعة، فانغمسوا فيها مستسلمين لها كلما طاب لهم الهوى. ولما كانوا قد خطفوا نساءهم أو اشتروهن بأثمان باهظة، بدا لهم أن اغتصاب النساء وشراءهن أو شراء ما رغبوا في امتلاكه من الغلمان شيء طبيعي، فكانت حياتهم وقفاً على السعي وراء المتع الحسية الأكثر تنوعاً يتصيدون ملذات الجسد بشتى الطرق والحيل. ثم أنهم علموا الفتيات الرقص لتكتسب أجسادهن ليونة في الحركة فيمارسها في ألعاب العشق. كما أنهم خَصَوا الغلمان ليتمتعوا بما في صباهم من سحر وفتنة وينعموا بأصواتهم الحادة، إذ كان هؤلاء المخصيون محط رعايتهم وتدليلهم. وكانوا ينظمون حفلات الفجور لامعان النظر في مشاهدة الرجال والنساء وهم يتجامعون في أشد الأوضاع تنوعاً، وليتعلموا بفضل هذه المشاهدة المثيرة كيف ينوعون بدورهم متعهم الجنسية الخاصة وكيف يصعدون من شدتها. وكلفوا المتطببين بصنع المراهم وتركيب شراب العشق ليزيدوا من شدة فحولتهم وشبق عشيراتهم الراضيات بقصفهم وعربدتهم.

وهم إن لم تسعفهم مخيلتهم وتبتكر لهم ألواناً من شبق الحواس، هرعوا إلى البراهمة يلتمسون عونهم فينصحهم هؤلاء، بطيبة خاطر، بضروب جديدة في التهتك ما دامت تساعدهم على عدول الراجا، غُرَمَائهم، عما في الحياة من جدية وعزوفهم، من ثم عن ممارسة السلطة. فأسلم الراجا إلى البراهمة مهمة سن القوانين الناظمة لأخلاق الأفراد وسلوكهم. وكان الكهنة يستندون في فتواهم، إلى «قانون مانو»[1] ومانو هو الابن الأسطوري للإله براهما (الذي تبوأ، لاحقاً، مكانته إلهاً أعلى» كما كان البراهمة يلقنون تلامذتهم أن «مانو» تسلم الذارما[2] من أبيه السماوي. وكانت الذارما تقضي بتأدية الفروض الدينية والالتزامات الاجتماعية بدقة وعناية، وترسم في كل طبقة من الطبقات الحدود التي يجب التقيد بها لممارسة كل نشاط بالوراثة ومن ضمن ذلك البراهمة أنفسهم، فعلى زيد من الناس الذي ينتمي إلى طبقة بعينها أن يمارس مهنة طبقته التقليدية، ولا يحق له، على كل حال، أن يتجاوز حدود عمله إلى عمل طبقة أخرى: «خير لك أن تؤدي عملك المقسوم لك أداء سيئاً من أن تؤدي عملاً مقسوماً لغيرك أداء حسناً».

وقد رمى قانون مانو، المنظوم شعراً، إلى التوفيق بين العلاقات الاجتماعية داخل مختلف الطبقات من جهة وفيما بين الطبقات والتعاليم الأخلاقية من جهة

١- يتألف هذا التشريع من ٢٦٨٥ بيتاً من الشعر ويرجعونه إلى سنة ١٢٠٠ ق.م. لكن الباحثين اليوم يردونه إلى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح - المترجم.

٢- الذارما: قواعد السلوك في الحياة لكل إنسان كما تحددها له طبقته - المترجم.

أخرى. تلك التعاليم التي يعدها البراهمة تعاليم سليمة وصالحة. مما استلزم تحظير كل زواج يخرق مبدأ تقسيم الطبقات، فعلى كل رجل أن يختار زوجة من الطبقة التي ينتمي إليها، ومن كانت له زوجات كثيرات عليه أن يمنح الأفضلية للزوجة التي من طبقته لتسود على الأخريات. وقد شرح مانو هذي القواعد: «يغدو الرجل من الطبقة الكريمة دَنِياً إن ارتبط بعائلة من الطبقة الدنيا، أما من كان دنياً بمولده فيستحيل أن يسمو بصحبة الأعلين. ويشجع قانون مانو على الزواج: «فبالنسل وحده يكمل الرجل»، أما المرأة فقد كرست، أساساً، للإنجاب، فالأبناء لا بد منهم للمضي في عبادة الأسرة لأسلافها، ذلك لأن أرواح الأسلاف تفنى إذا ما امتنع عنها الطعام وانصرف الأبناء عن تقديم الأضحيات.

لم تمنح المرأة إلا حقاً واحداً وهو «حق حماية الزوج لها حماية حذرة». غير أن المرأة بالنسبة إلى مانو هي الشر عينه. «مصدر العار هو المرأة» ومصدر الشقاق هو المرأة، ومصدر الوجود الدنيوي هو المرأة، فإذاً فحذار من المرأة. وفي فقرة أخرى نقرأ: «أن المرأة نزاعة بطبعها إلى إغواء الرجل على الدوام ومن ثم كان لزاماً على الرجل ألا يجلس في عزلة مع امرأة ولو كانت من أقرب أقربائه». «لا تقتصر قدرة المرأة على تضليل الأحمق عن جادة الصواب وسواء السبيل بل لها القدرة أيضاً على تضليل الحكيم، تمسك بزمامه وتخضعه لشهواته أو غضبه». وباختصار: أن الجنس اللطيف كان، في جميع أحواله، محتقراً ذليلاً.

(وغالباً ما كانت المحادثات مناظرات شعرية ارتجالية أو شواهد متعارضة تدور بين شعراء عدة، ولتقديم فكرة عن ذلك، فلنستمع إلى الحوار التالي من شواهد الشعراء أنفسهم:

- البراهمي، رجل المعرفة:

من ذا الذي خلق، إذن، تلك المتاهة من الشك، ذلك المعبد من الخيلاء، ذلك الدن من الخطايا، ذلك الحقل المزروع بألف خدعة، ذلك الباب المؤدي إلى جهنم، تلك السلة الطافحة بالأكاذيب، ذلك السم الذي يشبه العسل، تلك السلسلة التي تربط الأنام بالأرض: المرأة»!

- إحدى الحظايا:

أن الحكيم الزائف، الذي ينم على النساء، يخدع نفسه ويخدع الآخرين معه، ذلك لأن ثمرة التوبة هي السماء، والسماء هي التي تمنح الابسارا لأولئك الذين يفوزون بها.

البراهمي:

الشهد في معسول حديثهن، ومن صدورهن ينفثن السم. ففي آن واحد يرشف الرجل الشهد من شفاههن وبظهر يده يوسع صدورهن ضرباً.

الحظية:

لن يفوز المجانين، الذين يلوذون بالفرار من المرأة، إلا بمر الثمار، ذلك لأن حماقتهن تلك وإله الحب سيذيقانهم مر العذاب.. وفي اليوم الذي يتمكن فيه رجال شرفاء من السيطرة على حواسهم، فإن جبال فيِنْدهيا ستجتاز المحيط سباحة.

البراهمي:

ليس في عالمنا هذا إلا حديقة طافحة بالأزهار الضارة، إنه الصبا: بؤرة الهوى، وعلة آلام مبرحة تفوق بسعيرها أتون مائة جهنم، ومصدر للجنون، وستار من الغيوم يحجب نور العلم، وسلاح إله الحب الواحد، وسلسة من الخطايا من كل نوع.

الحظية:

كلب هرم أعور، وأعرج جَرِبٌ، لا يكسو عظامه سوى الجلد، ومزقت شدقية ما قرضه من كسر وصلب ما برح يتعقب الإناث من جنسه. إن إله الحب يعذب حتى المحتضرين، فما إن تمس قدم إحدى الجميلات شجرة الأسوكا حتى تتفتح أكمامها. النساء الشهوانيات يُلْهِبن، بما ينعمن به من غنج وشهوة، أفئدةَ الرجل قاطبة، فتراهن يهذرن مع أحدهم، ويرشقن آخر بنظرات حب مشجعة، في حين أن حب رجل ثالث يعمر قلوبهن.

البراهمي:

إن ذاك الذي يصبح سيد حواسه، يمتزج تبصره وعقله بالروح العليا، وعلى هذا، ما جدوى مناجاة الأحبة، وشهد الشفاه، وصباحة الوجوه، ولهو الحب وآهاته، واعتصار نهود مدورة كما الرمان.

الحظية:

الكتب المقدسة تملأ أفواه المتفقهة.. ومن أطراف شفاهم يدعوننا للإقلاع عن الحب. ترى من ذا الذي يستطيع النجاة من أرادف الصبايا الجميلات، المزدانة بالنُطُق المجلجلة واللآلئ الحمراء المتدلية. فإذا ما حاكت المرأة شراك هواها فلن يستطيع براهما نفسه أن يحول دون مبتغاها.

رجل كهل: لا يتأكد الرجل من استقامة شرفه وكريم فضيلته وواسع حكمته إلا إذا انتصر، بقلبه وعزيمته، على فساد النساء وشرورهن...

أحد الفتيان:

ما هو أجمل المشاهد وأروعها؟	وجه صبية طافح بالحب
ما أذكى العطور وأطيبها؟	أنفاسها العذبة
ما أمتع الأصوات وأرخمها؟	صوت الحبيبة

ما ألذ مذاق وأحلاه؟ شفاهها يخضلها الندى
ما أحلى الملامسات وأنعمها؟ ملامسة جسدها ووصاله
ما هي أجمل الصور التي تستأثر بالفكر؟ مفاتنها

أن كل ما في الفتاة يطفح بالسحر والروعة

شاعر شاب:

الفتاة العذراء برعم وردة رخصة لما يتفتح بعد.

فتى آخر:

البسمة الرقيقة على الشفاه، والنظرات الحيية الجسورة، والهذر الفكه، والتملص المراوغ، والعود المفاجئ، وتبادل العواطف السريع، والتسليات اللعوب المرحة التي لا تنقطع.. أليس هذا جميعه ما يأسر لُبَّنا؟

يا للصبايا ذات العيون كعيون الظباء...
فإن هن ابتعدن عنا نتوق شوقاً إلى رؤيتهن.
وإذا ما رأيناهن، لا تتملكنا إلا رغبة واحدة: أن ننعم باحتضانهن
وإن كنا بين أحضانهن، فلا نطيق عنهن بعادا.

- شاعر شاب:

ترى أي فانٍ سينعم بهذا الجمال الساحر، الذي يشبه بريعانه وطهره زهرة لما يتنشق شذاها أحد بعد.. ولما يلمس زغبها الناعم إنسان بعد.. لمن ستؤول تلك الشبيهة ببرعم رخص لما يمسه ظفر آدمي بعد.. تلك الشبيهة بلؤلؤة لم تزل تنعم بالحماية في كنف صدفتها حيث ولدت؟) (من كتاب: kama-sutra) منشورات SOLAR. - المترجم.

إذا ما عزم الرجل على الزواج، تحتم عليه أن يطلع زوجه على واجباتها: «على المرأة أن تخدم مولاها كما لو كان إلهاً، وألا تأتي شيئاً من شأنه أن يؤلم زوجها، أياً كانت حالته، حتى لو خلا من كل فضيلة» (أما الزوجة التي تعصي زوجها فمآلها أن تتقمص روحها جسد ابن آوى في خلقها التالي. من قصة الحضارة - المترجم) كان مانو ينصح الرجال، على الدوام، بالعدول عن تشديد الرقابة على النساء وإلا فإن مكرهن سيملي عليهن خدعاً تجلب المصائب. ومن المستحسن ألا تضربهن «حتى لو كان ذلك بزهرة»، كما أشار عليهم بمنح المرأة جميل الثياب: «لأن الزوجة إذا حرمت أنيق الثياب فلن تسعد زوجها وتمتعه... وإذا زينت المرأة ببهيج الثياب، ازدهى المنزل كله بالجمال». «بيد أن قانون مانو يمنح الأفضلية للمرأة الأم: «الأم أولى بالتقدير من ألف والد».

وقد عَدّ مانو زواج الاختطاف أنبل شكل من أشكال الزواج، غير أنه سلم أيضاً بزواج يشترى. وأعلن أن القران «الأكثر حكمة» هو ذاك القران الذي يتم باتفاق الوالدين مع مراعاة قواعد الذراما. لكن القانون أدان «الحب»، إذ لا ينبغي أن يكون الدافع لاقتران الزوجين اتقاد جسدي أو نشوة روحية، ذلك لأن الملذات الشهوانية التي ستنجم عنه تتناقض والمثل الأعلى في التخلي أو الزهد الذي يكرز به البراهمة ويطنبون في امتداحه.

وفي مقابل ذلك فقد أجاز تشريع مانو للبراهمة «الاستمتاع» ما دامت المتعة في خدمة العقيدة فاستخدموا في معابدهم «خادمات الإله» اللائي يرقصن ويغنين أمام صور الآلهة وتماثيلها. وكانت مهمة إعداد هؤلاء العذارى المنذورات وتربيتهن تربية جنسية شهوانية تعود، حكماً، إلى الكهنة. أوَ ليست هذه المهمة، التي تجعل من هؤلاء الفتيات نسوة عذبات يشرحن صدور الراجا والمحاربين، بالمهمة، المقدسة الشريفة؟ ذلك لأن الزهد بالنسبة لهؤلاء السادة أصحاب الامتياز ليس إلزامياً. وقد كان للبراهمة، في العديد من المناطق، «حق الليلة الأولى» مع كل عروس فتية. كما كانوا ينعمون بحرية لا حد لها في إخصاب النساء العواقر فيبيتون معهن ليلة في المعبد لكي يبرأن من عقمهن، فيمارسون معهن. كل أنواع العشق وفنونه.

قلما كانت امتيازات «الرجال المقدسين» تثير السخط أو الاعتراض، ذلك لأن البراهمة قد عرفوا تمام المعرفة قانون مانو فبرعوا في تفسيره وتأويله... فقالوا: «إن كل مساس بالبراهمي يستوجب أقسى العقوبات وأشدها، لأن كل من يمس شعور رجال المعرفة هؤلاء، ينتهك، من ثم، حرمة الـ «فيدات» كتب المعرفة. بل إن القانون يحمي البراهمة حتى من تعسف الراجا: إذ يوحي بإعفائهم من الضرائب، لأن البراهمي، إذا ما ثارت ثائرته يستطيع أن يسحق الأمير ورجال حربه جميعاً بتلاوة اللعنات والرقى السحرية، دون أن يلجأ إلى تدبير ما آخر. وفي المقابل، لا تحق على البراهمة عقوبة الموت. ومع ذلك فإن قانون مانو قد تضمن إنزال العقاب في أغلب الحالات الجرمية، والموت هو العقوبة في عدد كبير جداً من الجرائم، ولا يستطيع إنقاذ الجاني إلا «حكم الله» وحده. فعلى السارق الذي لا يعترف بجرمه أن يغطس ذراعه في سطل يحتوي خليطاً من الزيت المغلي ومن روث البقر، أو أن يدخلها في سلة طافحة بالأفاعي السامة وغير السامة، فإن خرج من محنته وامتحانه سالماً معافى برئت ساحته مهما بلغت صحة الشهادات التي تدينه.

إن قانون العقوبات لمانو، مثل قانون حمورابي، إذ يرتكز هو الآخر على القصاص بالمثل: العين بالعين والسن بالسن، بيد أن القصاص هنا مفجع ووحشي بوجه خاص: كانوا يبترون الأيدي والأرجل ويجدعون الأنوف ويصلمون الآذان ويفقؤون العيون ويهشمون عظام الأيدي والأرجل بمطارق خشبية، ويغرسون المسامير في الأكف والأقدام والصدور، ويقطعون أعصاب المفاصل قبل إعدام المحكوم عليه بشيه حياً، أو بتعريضه لأنياب الكلاب الجائعة، أو بقذفه تحت أقدام الفيلة لتدكه دكاً. وكانوا يطلعون الجناة، قبل تنفيذ عقوبة الإعدام فيهم، على مبادئ

«الافتداء الآجل» وفق تعاليم مانو، لتخليصهم من جميع أفعالهم البشرية.. وهكذا يتأكد الجاني أن لا مندوحة له من الخضوع لتناسخ الروح فلا مناص من تقمصه لأشكال جديدة أحط وأدنى ولا نجاة له من مكابدته، بغير انقطاع. للآلام المبرحة في كل ولاداته وميتاته الجديدة القادمة، ويشرع الكهنة في تعداد «نتائج أعماله في هذا العالم» فلن تجد نوعاً واحداً من أنواع الحيوان أو حشرةً من الحشرات المؤذية أو حيواناً من الحيوانات الآكلة اللحوم أو ضرباً من ضروب الديدان أو الأفاعي أو جنساً من أجناس الطير أو النبات بمستعدٍ لقبول روحك الخاطئة للحلول فيه إلى حين موتك المقبل، ليقذف، من ثم بروحك الآثمة التي لا تستحق الراحة، نحو تقمص مروع آخر.. وهكذا فإن الروح الآثمة تتناسخ بغير انقطاع.

لم يذكر قانون مانو عرفاً ما زال قائماً، بشكل أو بآخر، حتى الآن: كانت الأرملة تحرق فوق محرقة زوجها المتوفَّى. غير أن الـ «أتهارفا - فيدا»: كتاب معرفة الصيغ السحرية، يرى في التضحية بالأرامل حرقاً عادة قديمة وهكذا فإن المرأة بموتها الطوعي ستبقى زوجته إلى الأبد، وستعود إلى الارتباط الزوجي به في جميع حيواته وتقمصاته المقبلة. يكفي أن تُمزج رفاتهما وأن يدفنا معاً... والكلمة الشائعة الاستعمال في الهند للدلالة على إحراق الأرملة وترميدها هي «ساتي» وتعني: «المرأة المطيعة لزوجها وقدرها». وقد تحسَّب كتاب الـ: «أتهارفا - فيدا» لعادة حرق المرأة فأوجد مخرجاً مشرفاً للمرأة الأرملة ينجيها من ألسنة اللهب: حينما ترقد المرأة على المحرقة بجانب زوجها الميت وحالما تشرع النار في الاشتعال، بمقدور أحد الرجال - إذا ما رغب في الزواج بها - أن يمسك بيدها.. فإن قبلت به، في الحال، زوجاً لها، فبإمكان هذه المرأة، التي نذرت نفسها طعمة للنيران، أن تستأنف معه حياتها التي سبق أن قررت وضع حد لها.

قبل أن يكرز بوذا بـ «نعيم النرفانا المطلق في سعادة الفناء الذي يقضي على كل رغبة، ويذهب بكل كراهية، ويحرر الإنسان من آلام التقمص والعودة إلى الحياة»، وقبل أن يعلم تلامذته «الحقائق السامية الأربع» وأن الحياة ليست منهلاً للمتع الحسية لا ينضب، بل الحياة سلسلة متوالية من الآلام، ظهر في أوساط العديد من الطوائف، «حكماء» مستقلون سعوا إلى عزل الجمهور عن البراهمة وعملوا على دحض مذهبهم لبطلانه ونددوا بالتنكب عن الدنيا والزهد فيها.

وقد بين هؤلاء المتشككون «NASTOKA» «النُكَّار» أن الفيدات التي يعتمدها الكهنة ليست، من قريب أو بعيد، كتباً للمعرفة، بل هل اللا معرفة بعينها، وأن تعاليم البراهمة ليست إلا خدعاً وأباطيل ولا هدف لها إلا إرهاق الشعب وإثراء البراهمة، ثم أن هؤلاء «الرجال» القديسين «لم يحملوا الحبل المقدس» إلا لتشبيه، رجال الدين، المتشددين في تمسكهم بالعقيدة، بموكب من الكلاب يمسك كل منها بذيل سابقه، وأن ما يحملونه من أفكار عميقة حول روح العالم «بزرة الفكر» ليست سوى أوهام مجانين مدعين، ما داموا هم أنفسهم يقررن أن عقل الإنسان عاجز عن كشف حقيقة الأشياء ومعرفتها. كما أن نظرية تناسخ الأرواح التي تزرع الرعب والفزع في

النفوس قد اختلقتها مخيلة البراهميين المريضة السقيمة، لتسكين جوعهم، وإرواء عطشهم وإشباع نهمهم وجشعهم، فهم وأن صدقوا وكان للإنسان روح فهي، في أحسن أحوالها، عبد للمصادفة ولا تملك لها دفعاً، ثم أن الإنسان ليس مزيجاً لعناصر هي التراب والماء والنار والهواء: «إن الحمقى وأرباب الحكمة يتشابهون إذا ما تحلل الجسد، فكلاهما يزول وينعدم ولا يكون له وجود بعد الموت».

واحد من أهل البدع هؤلاء اسمه بريها سباتي، كتب يقول:

«ليس للجنة وجود وليس هناك خلاص أخير،
فلا روح، ولا عالم آخر، ولا طقوس للطبقات
أن فيدا ذات الوجوه الثلاثة، وأمر الإنسان لنفسه
بلغات ثلاث،
وهذه التوبة بكل ما فيها من تراب ورماد.
كل هذه وسائل عيش لقوم
خلو من الذكاء والرجولة
كيف يمكن لهذا الجد إذا ما أصبح تراباً...
أن يعود للظهور على الأرض؟ وإذا كان في وسع
الشبح أن يمضي
إلى عوالم أخرى، فلماذا لا يجذبه الحب الشديد
لمن يخلفهم وراءه، فيرجع إليهم؟
إن هذه الطقوس الغالية التي تقام لمن يموتون
ليست إلا وسائل عيش دبرها
دهاء الكهنة - لا أكثر من ذلك..

«قصة الحضارة - المترجم»

فما دمت حياً، انفق حياتك مطمئن البال
مرح النفس، والإنسان النبيه يقترض المال من
أصدقائه جميعاً
ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ويطعم نفسه بالزبد
المذاب...».

وتحول بعض من هؤلاء المتشككة إلى باريباجاكا أي الجوالين، وراحوا يطوفون متنقلين من مكان إلى آخر باحثين لهم عن تلامذة وأتباع، يعلمونهم أن لا وجود للإله، وأن ما يطالب به الكهنة من امتناع عن الجنس والزهد فيه يتعارض

ومغزى الطبيعة ومعناها، ما دامت جميع المخلوقات على وجه البسيطة تتزاوج بمسرة ومتعة، إذ كانوا يقولون: «الحكمة الوحيدة هي أن تتمتع بالحياة وتنعم على الأرض» وكذلك الأخلاق أمر طبيعي، فهي عرف اجتماعي ووسيلة لراحة العيش في المجتمع، وليست بالأمر الصادر عن الإله. والطبيعة لا تأبه لخير أو لشر، لفضيلة أو رذيلة، وهي تشرق بشمسها في غير تفرقة بين الأوغاد والقديسين، لو كان للطبيعة صفة أخلاقية إطلاقاً، فهي منافاتها للأخلاق كما تعرفها حدود البشر، ولا حاجة بالإنسان إلى لَجْم غرائزه وشهواته، لأن هذه هي الإرشادات التي رسمتها الطبيعة للناس، الفضيلة غلَطة من الغلطات، وغاية الحياة هي أن تعيش، والحكمة الوحيدة هي أن تعيش سعيداً: تلك هي الفلسفة التي أخذ بها فريق «الشارفاكا» ختاماً لإسفار الفيدا وأسفار الأوبانيشاد. وقد استقل هؤلاء المتشككون الرافضون للفكر والروح ودعاة التمرد على زعماء الدين، بالترحاب في بلاط أمراء الراجا وفي مناطق نفوذ رجال حربهم، كما استقبلت دعواتهم وتشجيعهم، للنبلاء وعلية القوم، على التنعم بالملذات بالترحاب أيضاً. ومن البديهي أن يلقى كل تأييد يدعم لهوهم وكل تبرير لبطالتهم القبول والترحاب. وعلى العكس من ذلك، فقد كره وجهاء القوم مبدأ الأهيمسا (AHIMSA - العزوف التام) الذي كان يكرز به ابن ملك إقليم بيهار سيدذارتا - جانتاما SIDDHAHARTA-GANTAMA الذي اهتدى إلى التزهد.

وعلى هذا فكيف يرحب بمثل هذه الأخلاق أولئك الذين يحيون حياة بذخ ورخاء، وينعشون ذكورتهم الخائرة باستخدام جميع نساء أهل البيت للاعتناء بصحتهم، إذ كان بمقدورهم أن يختاروا، في كل يوم من أيام الأسبوع، حظية جديدة، وكان يزعجهم أشد الإزعاج، أن هذا الناسك، الذي يمجده مريدوه من الجائينيين[1] وكأنه أحد الفاتحين (جينا - DGAINA) قد استسلم راضياً بتسميته بطلاً عظيماً (ماهافيرا) وامتدح الانتحار وراعى بدقة متناهية الأماني والنذور التي فرضها وأمر بها، فعلى كل معتنق للأهيمسا ألا يقتل كائناً حياً حتى لو كان جعلاً تملأ أسرابه الجو دوياً، وألا يحرث الأرض مخافة أن يزهق أرواح بعض الديدان، فكان لزاماً عليه أن يكنس الأرض أمامه قبل أن يطأها كيلا تدوس أقدامه العارية بعض الحشرات فيهلكها، كما حظر عليه أن يذبح أو يضحي بحيوان كائناً ما كان، حتى العسل منع عنه ما دام نتاج الحياة.

١- انظر التعريف الذي جاء في التسلسل الزمني من هذا الفصل.

هذا القاهر لذاته الكاره للكذب والممتنع عن أخذ ما لم يعط له، الذي قضى حياته عفيفاً طاهراً، وأدان لذائذ الحواس بوصفها خطيئة، لم يغزُ قصور الأمراء ولم يَسْتَمِل إليه قلوب الأغنياء. فأُغلقت في وجهه ووجه مريديه الأبواب، بل وَطُردوا، بلا رحمة، من بيوت السادة، ذلك لأنهم لم يكونوا متسولين يلتمسون الصدقات.

ولم يرغب الراجا والمحاربون والبراهمة وأفردا الطبقات، التي أَثْرَت بالتجارة أو الصناعة، والتواقة إلى الاقتداء والتشبه بنمط حياة الأمراء والكهنة، في أن يطرأ تبديل ما على ظروف حياتهم الاجتماعية والروحية التي عادت عليهم بالنفع الوفير. ثم أنهم كانوا يحقدون على بوذا «المستنير» الذي غادر قصره الملكي بما فيه من بذخ وترف، وتخلى عن حياة الأمراء، ليغدوا متسولاً ومبشراً ويخلق ديانة جديدة.

وبقيت أعراف وتقاليد المحاربين والبراهميين والأغنياء، الذين يعزلهم عن بقية الطبقات تقسيم صارم، على حالها، في جوهرها، لم يطرأ عليها تغيير أو تبديل، فابتكروا، في عزلتهم خلف أسوارهم وحدائقهم، ضروباً من المتع، وأحالوا اللذة فناً رهيفاً. فلم يعكر صفوهم معكر ولم يقلق طمأنينتهم أحد، ذلك لأنه كلما ازداد عدد أنصار مبادئ بوذا ومشايعيها، حتى بعد وفاته، ازداد عدد الرجال والنساء من الطبقات الدنيا الراغبين في تعلم كبح رغباتهم وكبتها، وفي التخلي، طوعاً، عن «الشهوة إلى اللذات» وعن «الشهوة إلى أن يصبح».. وعن «الشهوة إلى القوة والسلطان». في حين لم يكن للمدللين الفاسدين إلا أن ينعموا بالحياة ويستمتعوا بها. كانت الجموع الخاضعة لمبادئ بوذا راضية مسالمة، فلم تطالب بحق واحد من حقوقها، بل كانت تتألم دونما شكوى، لأن الآلام تسمو بالناس إلى الصفاء والطهارة، وتمنحهم الأمل في إمكانية بلوغ النرفانا.

إن التقسيم إلى طبقات وما نتج عنه من وجود متزامن لأخلاق وآداب متباينة في مناطق واحدة قد زادت التأثيرات البوذية في حدته. فمن جهة أولى، تبنى قسم من السكان الدين الجديد، واستخدم البراهميون، من جهة ثانية، سلطانهم ونفوذهم للحفاظ على ديانتهم التقليدية أو ترميمها تحت شكل من أشكال التجدد تزيد أو تنقص بما ينسجم، قبل كل شيء آخر، مع مصالحهم الخاصة.

وقد قدر البراهميون، حفظة الفيدات وحراسها، على امتداد العصور، ما للأناشيد المؤثرة والترانيم المقدسة من سلطان ونفوذ على بني الإنسان. فاستطاعوا بحذق تأويلاتهم للأسرار المبهمة، السيطرة على أفكار العوام من الناس. أما الآن، وبعد أن تغير الزمن، فقد بدل البراهمة أسلوبهم. وبدا لهم أن إحياء أساطير الماضي وبعثها موات. فرددوا هذي القصائد، المغرقة في شعبيتها وأنشدوها في بلاط الأمراء ورددوها على أسماع الشعب.

فنظم العديد من الشعراء البراهميين أشعار الرامايانا RAMAYANA والماهاب - هاراتا MAHAB-HARATA. واستطاع البراهمة، بفضل هاتين الملحمتين المنظومتين أن يرسخوا في أذهان مستمعيهم وقرائهم الإيمان بالأقدمين وبقوانين مانو، وذلك أفضل من تلقينها حِكَماً جافة وتعاليم صارمة. ولما جاءت هاتان الملحمتان مغلفتان بأساطير الآلهة والأبطال والملوك والعمالقة والقصص والخرافات وروايات الحب فقد انطبعت في الذاكرة بسهولة فرسخت في الأذهان واستحثت المخيلة.

(ولسوف نتناول هاتين الملحمتين، لما لهما من أهمية بالغة ومكانة مرموقة، إنما بإيجاز بالغ. في رأي الكثيرين أن «الماهابهارا» هي «أعظم آية من آيات الخيال التي أنتجتها آسيا». بدأت هذه الملحمة (حوالي سنة ٥٠٠ ق.م) قصيدة قصصية قصيرة، ثم أخذت تضيف إلى نفسها في كل قرن من القرون المتعاقبة حكايات ومقطوعات. حتى بلغ طولها في نهاية الأمر ١٠٧.٠٠٠ زوج من أبيات الشعر الثمانية المقاطع أي ما يساوي سبعة أضعاف الإلياذة والأوديسة مجتمعتين.

يقدم الجزء الأول من القصيدة «شاكونتالا» الجميلة وابنها القوي «بهارفا» وقبائل كورو وباندافا، التي تتألف من حروبهما الدموية سلسلة الحكاية، فالملك «يوذ سشيرا» ملك البندافيين - يقامر بثروته حتى تضيع كلها، ثم بجيشه ومملكته وبإخوته وأخيراً بزوجته «داروبادي» وكان في هذه المقامرة يلاعب عدواً له من قبيلة كورو، كان يلعب بزهرات مغشوشة، وتم الاتفاق على أن يسترد البانداڤيون مملكتهم بعد اثني عشر عاماً، يتحملون فيها النفي من أرض وطنهم. وتمضي الاثنا عشر عاماً، ويطالب البانداڤيون أعداءهم الكوريين برد أرضهم، ولكن لا جواب فتعلن الحرب بين الفريقين. ويروي لنا الشاعر الإحصائي أن عدد من سقط في القتال قد بلغ عدة مئات من ملايين الرجال، وتسمع «جانذاري» - الملكة زوجة ملك كورو الأعمى - تسمعها وسط هذا المشهد الدامي المترع بمناظرات الموت، تصرخ جازعة عندما تبصر العقبان محومة في لهفة الشره فوق جثة ابنها الأمير «دريوذان».

ملكة طاهرة وامرأة طاهرة، فاضلة أبداً خيرة أبداً،
هي جانذار التي وقفت وسط الميدان شامخة في حزنها العميق
والميدان ملآن بالجماجم، وجدائل الشعر انعقدت عليها الدماء.،
وقد أسود وجهه بأنهار من دم متجمد،
والميدان الأحمر ملآن بأطراف من لا يحصيهم العد من المقاتلين..،

وعـواء بنــات أوى الطويـل المديـد يـرن فـوق منبطح الأشلاء،
والعقاب والغراب الأسحم يرفرفان أجنحة كريهة سوداء،
وسـباع الطيـر تمـلأ السـماء طاعمـة مـن دمـاء المحاربين
وجماعــات الــوحش البغيضــة تمــزق الأجســاد الملقاة شلواً شلواً
سيق الملك الكهل في هذه الساحة، ساحة الأشلاء والموت
ونسـاء كـورو بخطـوات مرتعشـة خطـون وسـط أكداس القتلى
فـدوت فـي أرجـاء المكـان صـرخات عاليـة مـن جزع
عندما رأين ذئاب الغابة تطعم هيأ لها القدر من فرائس
عنـدما رأيـن جَوَّابـات الليـل السـود سـاعيات فـي ضوء النهار
ورنـت أرجـاء الميـدان المخيـف بصـرخات الألـم وولولة الجزع.

فخارت منهن الأقدام الضعيفة، وسقطن على الأرض
وفقد أولئك الراثيات كل حس وكل حياة، إذ هن في إغماءة
من حزن مشترك، إلا أن الإغماءة الشبيهة بالموت، التي
تعقب الحزن، فيها لحظة قصيرة من راحةٍ للمحزون.
ثم انبعث من صدر «جانذاري» آهة عميقة من قلب مكروب
ونظرت إلى بناتها المحزونات، وخاطبت كرشنا قائلة:
«انظري إلى بناتي اللاتي ليس لهن عزاء، انظري إليهن وهن
ملكات أرامل لبيت كورو انظري إليهن باكيات على أعزائهن
الراحلين، كما تبكي إناث النسور ما فقدت من نسور انظري
كيف يثير في قلوبهن حب المرأة كل قسْمة من هاتيك
القسمات الباردة الذاوبة.

انظري كيف يجبن بخطوات قلقة وسط أجساد المقاتلين وقد أخمدها الموت.

وعندئذٍ - واحسرتاه - وقع بصرها الحائر على ابنها «در يوذان»

فأكل صدرها غم مفاجئ وكأنما زاغت حواسها

عن مقاصدها

كأنها شجرة هزتها العاصفة.

فسقطت لا تحس الأرض التي سقطت عليها.

ثم صحت في أساها من جديد، وأرسلت بصرها

من جديد

إلى حيث رقد ابنها مخصباً بدمائه يلتحف السماء

وضمت عزيزها در يوذان، ضمته قريباً من

صدرها

وإذ هي تضم جثمانه الهامد اهتز صدرها بنهنهة

البكاء

وانهمرت دموعها كأنها مطر صيف، فغسلت بها رأسه

النبيل

الذي لم يزل مزداناً بأكاليله، لم تزل تكلله أزاهير المشكا ناصعة حمراء.

«لقد قال لي ابني العزيز در يوذان حين ذهبت إلى القتال، قال:

«أماه ادعي لي بالغبطة والنصر إذ ما اعتليت عجلة المعمعة»

فأجبت: عزيزي در يوذان: «اللهم - يا بني - اصرف عنه الأذى إلا أن النصر آت دائماً في ذيل الفضيلة»...

.....

ولست الآن أبكي در يوذان، فقد حارب أميراً وسقط أميراً إنما ابكي زوجي الذي هذه الحزن، فمن يدري ماذا هو ملاقيه من نكبات؟

.....

انظر كيف تمسك به على سريره في رفق بيدين رقيقين رحيمتين.

انظر كيف تدبر بصرها من زوجها العزيز الراحل إلى ابنها الحبيب فتخنق عبرات الأم أنَّة الأرملة وهي أنَّة مريرة وأن جسدها الذهبي رقيق كأنه من زهرة اللوتس.

أواه يا زهرتي، أواه يا ابنتي، يا فخر «بهارات» وعز «كورو»

ألا إن صدقت كتب الفيدا فـ «دريوذان» الباسل حي في السماء

ففيم بقاؤنا على هذا الحزن، لا ننعم بحبه العزيز؟

أن صدقت آيات «الشاسترا» فابني البطل مقيم في السماء
ففيم بقاؤنا في حزن ما دام واجبهما الأرضي قد تأدَّى؟
فالموضوع موضوع حب وحرب، ولكن آلاف
الإضافات
زيدت عليه في شتى مواضعه.

وإليكم قصيدة من أسمى القصائد الفلسفية التي عرفها الشعر العالمي جميعاً، وهي المسماة «بهاجافا لـ «جيتا» ومعناها: (أنشودة المولى)، وهي بمثابة «العهد الجديد» في الهند يبجلونها بعد كتب الفيدا نفسها، ثم يستعملونها لحلف الإيمان في المحاكم كما يستعمل الإنجيل أو القرآن فلنستمع إلى فلسفة غاندي والمسيح:

«إن الأمر كما أراه هو أن هذا الحشد من ذوي
قربانا
قد تجمع ها هنا ليسفك دماً مشتركاً بيننا،
ألا أن جسدي ليخور وَهَناً، ولساني يجف في
فمي..
ليس هذا من الخير يا «كِشَاف» يستحيل أن ينشأ
خير ما
من فريق يفتك كل منهما بالآخر، انظر،
إنني أمقت النصر والسيادة، وأكره الثروة
والترف
إن كان كسبهما عن هذا الطريق المحزن، وا
أسفاه،
أي نصر يسرُّ يا «جوفندا» وأي الغنائم النفسية
ينفع،
وأي سيادة تعوض، وأي أمد من الحياة نفسها
يحلو،
أن كان شيء من هذا كله قد اشتريناه بمثل هذه
الدماء؟..
فإذا ما قتلنا
أقرباءنا وأصدقاءنا حباً في قوة دينوية

فيا لها من غلطة تنضح شرا،
إنه لخير في رأيي، إذا ما ضرب أهلي ضربتهم.
أن أواجههم أعزل من السلاح، وأن أعري لهم
صدري،
فيتلقى منهم الرماح والسهام، ذلك في رأيي خير من
مبادلتهم ضربة بضربة».

ثم يأخذ «كرشنا» الذي لم تحمله ربوبيته على الحد من نشوته بالمعركة - في بسط وجهة نظره من صحة ما يقول ثقة استمدها من كونه ابن فيشنو، معلناً أنه من الخير والعدل أن يقتل الإنسان ذوي قرباه في حالة الحرب، وأن واجب «أرجونا» هو أن يتبع قواعد طبقة الكشاترية، وأن يقاتل ويقتل أعداءه بضمير خالص وإرادة طيبة، لأنه على كل حال لا يقتل إلا الجسد، وأما الروح فباقية، وهنا تراه يشرح ما جاء في «سانخيا» عن «بوروشا» التي لا يأتيها العطب وما جاء في «بوبانشاد» عن أتمان التي لا تفنى.. وتنتهي قصيدته الطويلة بالأبيات التالية:

أنا من القمر فضته ومن الشمس ذهبها
أنا موضع العبادة في الفيدا، والهزة التي تشق
أجواء الأثير،
والقوة التي تكمن في نطفة الرجل، أنا الرائحة الطيبة
الحلوة
التي تعبق من الأرض البليلة؟ وأنا من النار
وهجها الأحمر
وأنا الهواء باعث الحياة، يتحرك في كل ما هو
متحرك
أنا القدسية فيما هو مقدس من الأرواح، أنا
الجذر

الذي لا يذوي، والذي انبثق منه كل ما هو كائن،
أنا حكمة الحكيم، وذكاء
العليم، وعظمة العظيم،
وفخامة الفخيم..
أن من ير الأشياء رؤية الحكيم
ير أن براهما بمالهُ من كتب وقداسة،
والبقرة، والفيل، والكلب النجس،
والمنبوذ وهو يلتهم لحم الكلب، كلها كائن
واحد».

لعل المؤلف أراد أن ينقذ الروح الهندية من الهمود المميت الذي فرضته العقيدة البوذية، وأن يوقظها لتحارب من أجل الهند، فهي بمثابة ثورة رجل من الكشاترية أحسنَّ أن الدين يوهن أمنه، وارتأى في زهو أن هنالك أشياء كثيرة أنفس من السلام، وقبل كل شيء كانت هذه الملحمة درساً لو حفظته الهند لجاز أن يصون لها حريتها.

أما الرامايانا فهي من أشهر الأسفار الهندية وأحبها إلى النفوس..

وكما أن «الماها بهاراتا» تشبه «الإلياذة» في كونها قصة حرب عظيمة انشبتها الآلهة والناس، وكان بعض سببها استلاب أمَّة لامرأة جميلة من أُمَّة أخرى، فكذلك تشبه «رامايانا» «الأوديسة» وتقص عما لاقاه أحد البطال من صعاب وأسفار، وعن انتظار زوجته صابرة حتى يعود إليها فيلتئم شملها من جديد...

استطاع «راما» على إثر منافسة، أن يلوي القوس «موضوع الرهان».. فيقدم إليه «جاناك» ابنته «سيتا» بالصيغة المعروفة في مراسم الزواج في الهند:

هذه سيتا ابنة جاناك وهي أعز عليه من الحياة

فلتقاسمك منذ الآن فضيلتك، ولتكن أيها الأمير زوجتك الوفية

هي لك في كل بلد، تشاركك عزاً وبؤساً
فأعزها في سرائك وضرائك، واقبض على يدها بيدك
والزوجة الوفية لمولاها كالظل يتبع الجسد
وابنتي سيتار زين النساء - تابعتك في الموت والحياة

وفي هذه الملحمة نقرأ قصيدة تكاد تحفظها عن ظهر قلب كل عروس هندية، إذ قالت «سيتا» عندما نفي زوجها الحبيب إلى الغابة حيث سيقيم وحيداً:

«العربة والخيل المطهمة والقصر المذهب، كلها عبث في حياة المرأة فالزوجة الحبيبة المحبة تؤثر على كل ذلك ظل زوجها..

أن «سيتا» ستهيم في الغابة، فذلك عندها أسعد مقاماً من قصور أبيها

أنها لن تفكر لحظة في بيتها أو في أهلها، ما دامت ناعمة في حب زوجها.

وستجمع الثمار الحوشية من الغابة اليانعة العبقة

فطعام (يذوقه «راما» هو أحب طعام عند «سيتا»)

تمتاز أشعار هذه الملحمة بدقة الشعور، وبإعلانها شأن المرأة والرجل إعلاء مثالياً، وبتصوير الحياة تصويراً قوياً «وهو تصوير واقعي أحياناً» (عن قصة الحضارة - المترجم)[1].

على سؤال لتلميذه المفضل أناندا: «ما هو السلوك الذي ينبغي لنا أن نسلكه إزاء النساء؟ أجاب بوذا: «كما لو أنك لم ترهن («لكن ماذا نصنع لو تحتمت علينا رؤيتهن»؟ «كن منهن على حذر تام، يا اناندا» من قصة الحضارة - المترجم). وعلى العكس من «المستنير» «قدم الشعراء البراهميون النساء ومثلوهن بملاح ساحرة للغاية مما أدى إلى نسيان نصائح «مانو» وتحذيراته التي قد تعرض كل من لم يأخذ بها إلى الوقوع تحت تأثير إغرائهن ومفاتنهن الوخيمة العواقب. وعليه لم تفز النسوة بحق من الحقوق وإنما فزن ببعض الاعتبار، فكان الآباء، بتفويضهم أمر بناتهم إلى أزواج المستقبل، يمتدحون الروابط الزوجية ويشيدون بها. (كما سبق وأسلفنا في قصيدة «جاناك» - المترجم).

لقد كانت المرأة النبيلة الرائعة، التي لا تكتفي بأن تكون رفيقة مخلصة تبذل نفسها في سبيل زوجها فحسب، بل وتعرف أيضاً كيف تمنحه المتعة بمداعباتها، محط إكرام وإجلال. وكان البراهمة يذكرون بالحكمة القديمة التي جاءت في الفيدات: في أحضان الحبيبة ينسى الرجل العالم أجمع، إن كل شيء فيها خارج منها..» ولكي تكون مداعبات الحبيبة مؤثرة ناجعة، كان ينبغي، أن تكون عاشقة ومعشوقة في آن واحد معاً. وقد حافظ البراهمة، في ممارستهم لوظائفهم الكهنوتية، تمام المحافظة، على عادات نظرائهم وعلى الدوافع التي تخضع لها أفعال بني البشر. فانتهوا، بهذا الصدد، إلى أن قوانين مانوا، إذا كانت تنظم مظاهر علاقات الجنسين الخارجية، فإنها

١- لم يعرض مؤلف هذا الكتاب إلى هاتين الملحمتين إلا لماماً، فرأيت أن أقدم للقارئ ملخصاً وجيزاً لهما، نقلاً عن قصة الحضارة، للمتعة والفائدة - المترجم.

لا تسيطر على علاقاتهما الحميمة، فهي لم تشر إلى طرق الاتحاد الحقيقي، وأحكامه وغالباً ما لاحظوا، بأنفسهم، أن امتلاك امرأة ما، حتى تلك الراضية الراغبة، غالباً ما يكون مخيباً للآمال، إن افتقر إلى فرح الحب ومتعته الـ «كاما KAMA» وأن متعة الرجل ولذته تبقى ناقصة إن لم تتجاوب وتتطابق إحساسات المرأة أو، في الأقل، ما تتظاهر بالشعور به، مع إحساسات الرجل. أن إرواء غليل الرغبة الجسدية الغريزية إن هو إلا نشوة سريعة عابرة، ولن يكون، على كل حال، نعيماً حقيقياً، إن بقي العشير بارد العواطف. فالمرأة تستطيع منح جسدها دون أن تستسلم بروحها، تلك هي الحال في زواج المصلحة الذي يبرمه الأهل، أو في مضاجعة الخليلات اللائي يشترين بالمال. وتبقى اللذة تافهة لا طعم لها، ويبقى العاشق وحيداً في مضجعه على الرغم من وجود امرأة بجانبه، ورجل هذه حاله، لا يستطيع أن يكتم على نفسه أنه يدين بهذه الـ «كاما» إلى نفوذ ظروفه، أو إلى ما فصَّله الأهل ودبروه فعقدوا لقرانه بالمال والتجارة، أو إلى ثرائه الذي مكنه من دفع ثمن خدمات خليلاته. إن القبول الفاتر اللا مكترث والمذعن لذكورته لا بد من أن يؤدي إلى فتور لذة عناقه ولا بد من أن يجرح كبرياءه وينال من زهوه.

ولا ترغب الزوجات، قطعاً، في تلك الكاما التي لا يرى الزوج فيها إلا تأدية لواجب الزواج أو تلك التي تمنحه الأمل في الحصول على الأبناء. فهن يرغبن أيضاً في استثارة عواطف العشق والمحبة، ليستطعن، من ثم، التمتع باللذة ومنحها بشغف ومحبة، تلك اللذة التي يفرضها عليهن الواجب. وهن يرغبن في تعلم كيفية استمالة من اصطفين من الرجال والاحتفاظ بهم، وكيفية مساعدتهم وتقديم الخدمات لهم بغية السيطرة عليهم بفضل ما يهبنهم من متع وملذات.

وعلى هذا فلا يكفي المرأة أن تتزين بأحلى الثياب، وأن تغنج مزدانه بحليها، وأن تتطيب بالعطور وتعتني بجمال جسدها ونظافته، وأن تعد أطيب المأكولات وأفخرها، ذلك لأن الرجال الذين يسعون للتسلية والترويح عن النفس خارج بيت الزوجية قد أفسدتهم الخليلات والحظايا البارعات في مهنتهن الجديرة بالاهتمام، إذ وجدوا عندهن الأبواب مشرعة واللهو بالكلام الفالت مباحاً والألعاب الجماعية متوفرة ومشاهد الرقص والموسيقا تسر العين والأذن معاً. ففي بيوت اللذة كانوا يلتقون بأصدقاء، يسعون هم أيضاً، وراء اللهو وتزجية الوقت فيحصلون على ما يسعون وراءه، لكنهم، مثلهم أيضاً، لن يجدوا الحب أبداً.

وقد خفف البراهميون تخفيفاً مؤقتاً من غياب الاستعداد إلى الزواج والتحضير له، هذا الغياب الذي أحال الرابطة الزوجية إلى اتحاد غير سعيد لا يرغب فيه الطرفان، فغدا مجرد مساكنة ليس إلا. وضمنوها تعاليم موضحة بحاكيات مناسبة ووصايا بسيطة واضحة تشرح كيفية ممارسة العلاقات بين الزوجين بغية تحقيق فكرة الـ «كاما» الإلهية.

وقد احتفظنا بأسماء بعض معلمي المتعة الجنسية هؤلاء، إذ استفاد مالاناجا فاتسيا يانا، معلم الحب العظيم، مما دونوه في الـ «كاما - سوترا». وتعني كلمة

سوترا مبدأ، كما تعني تقريراً، أو رواية وحكمة بل أن الـ «كاما - سوترا» التي ألفها المعلم فاتسيا يانا هي أكثر من ذلك، أنها ملخص متكامل يخلو من تحفظ النظريات ويطبق، عملياً، الحياة الغرامية والجنسية، وهي أيضاً لوحة للأخلاق زاخرة بالألوان تؤلف منها جميعاً فسيفساء من المشاهد تفوق الحصر.

كسر فاتسيا يانا الطوق فاخترق الأحكام السابقة التي حظرت على النساء معرفة الفيدات فحالت بينهن وبين معرفة الـ «كاما». وبلغت هذه الأحكام المغلوطة مبلغاً دفع الرجال إلى منح النساء فرصة تجميع الخبرات الغرامية بفضل ممارستهن نشاطاً جنسياً لا يكل ولا يمل. ومن البديهي ألا تؤدي هذه الممارسة المنقوصة، الخرقاء، غالباً، إلى تحقيق المتعة الصحيحة وما يجود به الجسد من مسرات وأفراح.

فلا بد، والحال هذه، من تربية نظرية وعملية، ولا بد من التحرر والانعتاق من التحفظات ليصعد الإنسان من حساسيته ويحرر اتحاد الأجساد الطبيعي، بكافة الأشكال التي تلبسها هذه الاتحاد، من فقدان الثقة ومن عثاره وفضيحته ومما علق به من فساد أخلاق وإخلال بالآداب، إذ أن الفحش نقيصة الفكر وحده، لا الجسد. وليست أعضاء المرأة والرجل الجنسية أشياء قذرة بل هل وسائل الـ «كاما» الخيرة التي ينبغي للجنسين للنجاح في الحب، معرفة طاقاتها وتعلم استخداماتها. وقد حبا الله الإنسان بالعيون للرؤية والشفاه للتقبيل، والـ «لينغام - العضو المذكر» ما وجد إلا للتلذذ بالمتع والإنجاب في مهبل الأنثى - الـ «يوني» وعلى العشيرين ألا يتركا هذه المتعة تحت رحمة اتفاق مصادفة طارئ غير متوقع. ولن يقع «المطلعون» في شراك الصدفة وحبائلها إذا ما تعلموا مبادئ الكاما وامتثلوا للسوترا. وقد يسلّم فاتسيانانا بأن كثيراً من النساء هن «خبيرات ومجربات» مثل بنات الأمراء المحاربين، إضافة إلى الخليلات. وعلى هذا فقد اقترح أن تعلم رفيقات الثقة، من هؤلاء النساء، الراغبات في تعلم الحب، الأربعة والستين فناً، وهي توطئات لسعادة مرهفة ناعمة جديرة بالحب أو تعليمهن بعضاً منها، في الأقل، إن تعذر ذلك لكان الأفضل عموماً، أن تضطلع بمسؤولية تعليم الفتاة المبتدئة إحدى الصديقات المتزوجات أو الخالات أو إحدى الخادمات المسنات أو المتسولات الأليفات أو إحدى الأخوات المجربات.

الفت الكاما - سوترا لتخص أفراد الطبقات الميسورة والنسوة المقيمات في دور السكن الفاخرة اللائي أبيح لهن، في محيط من الأبهة والعيش الرغيد، التلذذ بمتع الحب والإلمام بشتى الوسائل واستخدامها لاستشارة اهتمام الرجال واستمالة قلوبهم.

أن تعرف المرأة: تركيب العطور، وشراب العشق، وكيفية العناية بجسدها وتطييبه بالعطور الذكية وأن تعرف تضميخ شعرها وضفره وصبغه، وتلوين أسنانها وأظافرها و.. فتلك أمور لا تشكل إلا المبادئ الأولى، إذ كان ينبغي لها أن تتعلم، أيضاً، الغناء، والرقص، والعزف على مختلف الآلات الموسيقية، وأن تلم بالأزهار وتبرع في توزيعها على شكل أكاليل لتزين بها بذوق، رهيف، صور الآلهة، والأسرة والوسائد الموزعة فوق الفراش. وكان لها أن تعمل على تطوير رشاقة أصابعها في

صنع الأقراط وباقات الريش، وزينات الرأس الفنية، إضافة إلى أشغال الصوف والحرير. وكان عليها أن تتقن ألعاباً تكسبها الصبر، والتلاعب بالألفاظ والدهاء، وأن تتقن لغات غامضة تستطيع بواسطتها التحدث مع من تحب دون أن يفقه الآخرون من حولها شيئاً. وكانت تتعلم الكتابة والقراءة بالرموز، ونظم القصائد ومزج عصير الفواكه والمرطبات.. وكانت في حاجة إلى الإلمام جيداً بما تفرضه المعاشرة من سلوك وآداب، وإلى معرفة آداب استقبال الضيوف في بيت زوجها وتكريمهم كما ينبغي، وكان يتحتم عليها أن تتقن كل ذلك إضافة إلى أشياء أخرى كثيرة لكي تكون، من جهة، محط اهتمام زوجها، رجل المجتمع الملم بالأربعة والستين فناً، ولكي لا تكون، من جهة ثانية، عرضة للإهمال والإبعاد فتحل محلها إحدى الخليلات، ذلك لأن للحظية الخبيرة في فنون الأنثى، الحق في احتلال مكان الشرف في مجتمع الرجال.

وعلى هذا فإن الـ «كاما - سوترا» كانت تفرض على النساء واجبات والتزامات، بينما كانت تلقي على مسامع الرجال النصح الإرشاد. وكان أول شرط من شروط السعادة «الآرتها - ARTHA» الحصول عل الثروة، لأن الرجل إن لم يكن ثرياً تعذر عليه الحصول على منزل فاخر تحيط به حديقة غناء ويحتوي على غرف داخلية وقسم مكشوف. الغرف الداخلية معدة للنساء، أما الغرفة الخارجية فلا بد من أن تكون طافحة بالعطور الذكية، والأطياب البلسمية، وتضم سريراً وثيراً مجوفاً في وسطه، يغطيه نسيج كتاني أبيض مزدان بأكاليل الزهور، وتنتشر على بساطه بتلات نضرة متعة للنظر، أما ما تبقى من الغرفة فيتم إعداده وتنظيمه بعناية فائقة - حيث العطور للعناية بالفم وطاولات اللعب بالنرد. ولا بد أيضاً من أن تضم الحديقة: أرجوحة دوارة وأخرى عادية، إضافة إلى عريش مزدان بنباتات مزهرة مع منحدر خضير للجلوس عليه. وينبغي للرجل أن يحرص تمام الحرص على هندامه كما المرأة. وعليه أن يتأكد، دائماً، من أن أنفاسه تفوح عطراً، وعليه أن يستحم كل يوم، وأن يضمخ جسده بالزيوت العطرة كل يومين، وأن يزيل العرق من إبطيه، وألا يترك لها أثراً، وعليه أن يحلق جمجمته ووجهه كل أربعة أيام، كما كان عليه، قبل أن يبدأ عمله اليومي كل صباح، أن يتأكد من أنه قد صبغ شفتيه وجفنيه بصبغة تتناسب مع سيمائه.

ترى هل هذا الرجل، المثالي الذي وصفته الـ «كاما - سوترا» وقد استعد بعناية فائقة لمقابلة امرأة من اختياره، ليس إلا مجرد مغرور بسيط معتد بنفسه، أم أنه لم يبذل الكثير من الوقت للعناية بمظهره إلا لترضى به تلك التي قابلها في أحد الأعياد أو في إحدى المآدب حيث احتلت، هي أيضاً، مكانها بين المدعوين، ذلك لأنها تنتمي إلى الطبقة نفسها التي ينتمي إليها هو؟

كان العالم الذي يتحرك فيه رجلنا هذا، حتى هبوط الليل، عالماً مذكراً، إذ كان يمضي ساعات نهاره مع أصدقائه، ثم أنه لم يكن ممنوعاً أو مثيراً للريب أن يمنح أحد أصدقائه دالة جنسية زائدة إن أحس هو وعشيره بالحاجة إلى عدم الاكتفاء بالعلاقات الروحية. والحق أن استسلام الرجال للمتع الجنسية المثلية لم يكن مناف

للعادات أو غير منسجم معها. ذلك لأن تعاليم فاتسيا يانا كانت تقضي بأن يتبع الإنسان ذوقه الشخصي فيما يتعلق بموضوع الحب والعشق ولم يضف إليها إلا قيداً واحداً: «وفق عادة البلد» ثم إنه رأى أن المنع يولد الرذيلة في حين أن الأفعال التلقائية المتحررة من القيود، أياً كانت أشكالها، تسمو بالفكر والروح معاً، شريطة ألا تتسبب في أذية الآخرين.

والرجل المثالي، سواء كان برفقة أصدقائه، أو بدونهم، كان يتوجه إلى الحدائق العامة ممتطياً صهوة جواده ويسير وراءه بعض من خدمه، حيث يشاهد عراك الديكة وعصافير السمان وصراع الأكباش ويمضي سهرته، عند الاقتضاء، مع خليلته، فيتنزهان في ضوء القمر ويتناولان طعامهما في الغابة إذا ما اخضوضبت البراعيم، ويلعبان ألعاباً جماعية. وقد خطر على الرجل ممارسة الـ كاما مع امرأة تنتمي إلى طبقة أعلى من طبقته، أو مع امرأة من طبقته إذا ما كانت ملكاً لرجال آخرين. غير أنه كان يتمتع، مع ذلك، بحرية زائدة تخوله اللهو مع الخليلات، وأن يمرح ويسرح مع نساء من الطبقات الدنيا، أقصين عن طبقاتهن أو تزوجن للمرة الثانية.

فإذا ما رغب الرجل في الزواج، بامرأة من طبقته طبعاً، عليه أن يتأكد من أنه لن يسعى وراء فتاة ذات «أنف أقنى أو منخرين خانسين أو فخذين مقوسين أو ظهر أحدب» وعليه ألا يسعى قط إلى الزواج بفتاة لا تحب النظافة، وغير طاهرة الذيل لعلاقتها برجل آخر.

كانت الأعياد الدينية والتظاهرات الرياضية تمنح الرجل فرصة مراقبة الفتاة العذراء إذ يستطيع طالب الزواج التأكد من أنها تروق له من الناحية الجسدية وأن مظهرها وسلوكها مناسبان وسليمان. وعلى أبيه وأمه إضافة إلى أصدقائه أن يتوسطوا له لعقد قرانه.

كان يتحتم على رجل المجتمع الحق ألا يلجأ إلى مغازلة من اختارها أثناء أيام الخطبة ألأولى، حتى إلى ما بعد الاحتفال بالزفاف رسمياً، إذ كان ينبغي له، قبل الاقتران بها في الـ «كاما» أن يسعى للتقرب منها والتودد إليها ليفوز بحظوتها ورضاها، وأن يحترس من اللجوء إلى العنف إزاءها مخافة أن يجرح حساسيتها، ولكن عليه، في الوقت نفسه ألا يبالغ في احتجازه لنفسه، مما يدفعها إلى الاعتقاد بأنها غير مرغوبة. وجرى العرف أيضاً أن يرقد الزوج الليالي الثلاث الأولى لينام على الأرض بالقرب من زوجه الحديثة العهد، وأن يمتنع العروسان، في الوقت نفسه، عن التمتع بملذات العشق، أما النهار فسوف يتيح لهما فرصة التعارف والألفة مما يساعد الزوجة الشابة على الاطمئنان إلى زوجها، فيزول فزعها من محاولات تقرب عشيرها العَجُولة.

وفي الأيام السبعة التالية يتناول الرجل والمرأة طعامهم معاً، ويقومان بزيارة الأصدقاء الذين حضروا زفافه. وعليهما، بحضور الآخرين، ألا يتصرفا كعاشقين، وإنما كصديقين حميمين. غير أنه يتحتم عليهما، إذا ما وجدا على انفراد، أن يستحما معاً، إذ لا بد من أن يدفعا عنهما كل حياء، وأن يتعرف كل منهما على جسد قرينه

عارياً قبل أن يتحد الاثنان جنسياً، وفي هذه الحالة، ستساعد الموسيقا المولدة للنشوة على استرخائهما وتخفيف توترهما، إذا ما تأمل كل منهما عُرْيَ عشيره المثير والمهدد معاً.

إن النساء الملمات بالحب كما جاء في الكاما - سوترا على علم بأن متعة الحواس التي تنتظرهن أو تعصى عليهن، منوطة بتكوينهن الجسدي أو ببنية الرجل الذي سيستلمن له. وقد تعلمن أيضاً كيف يكون بمقدوره ومقدورهن معاً معالجة فقدان الانسجام فيما بين حجوم الأعضاء الجنسية الخاصة بكل منهم. وعلى هذا، فقد أصبح بالإمكان مَدّ يَدَ العونِ إلى الطبيعية لكي يُعزِّز العمل الجنسي، الذي باشره الطرفان بفن ورهافة، الروابطَ الزوجية ويمنح كلا منهما أمتع النشوات وألذها.

وليس للحياء المزيف مكان في الكاما - سوترا، ذلك لأن النساء المطلعات على مضمون كتاب الحب هذا يعرفن أنه يوجد ثلاثة أصناف من الرجال وفق أبعاد أعضاء ذكورتهم المسماة لينغام، فبعضهم يكونون أرانب، وبعضهم الآخر ثيراناً، والصنف الثالث والأخير هم الأحصنة: يدعى الرجل من الصنف الأول بالرجل الأرنب، ومن الصنف الثاني بالرجل الثور، ومن الصنف الثالث بالرجل الحصان، وقد صُنفت النساء أيضاً، تبعاً لعمق مهبلهن الـ «يوني» أو اتساعه، في ثلاث فئات: في الفئة الأولى تدعى بالمرأة الظبية، وفي الثانية بالمرأة الفرس، وفي الثالثة بأنثى الفيل.

الرجل الأرنب يتناسب والمرأة الظبية، والرجل الثور مع المرأة الفرس، والرجل الحصان مع أنثى الفيل، ومن المحتم على كل من العشيرين ألا تبرد همته أو تخور عزيمته إن لم تُحَقِّق الصدفة هذا الوفاق، ذلك لأنه يتوفر لكل منهما العديد من الوسائل الطبيعية والاصطناعية لتدارك هذا التفاوت الجسماني. فالأهمية أولاً وأخيراً تعود إلى حَمِية الهوى وشدة الرغبة، وبخاصة استعداد الزوج وكفاءته في إطالة فترة الجماع ليبلغ بالمرأة ذروة حساسيتها ويروي رغبتها، في ذات الوقت الذي يروي فيه غليله بالقذف في مهبلها، فمن واجب الزوج أن ينتظر متعة زوجته وبلوغها ذروة النشوة الجنسية، ألا وهي رعشة الجماع. وبالمقابل فإن على المرأة أن «تعامله بالمثل وتقابل جميله بأجمل منه» وأن تخضع لإتقان كافة ضروب الحب والجماع التي يتضمنها الكاما بتمامه.

وتساعد إرشادات الـ «كاما - سوترا» الرجل على تبديد كل ما ينتاب زوجة البتول من نفور وخوف وتردد، ففي مقدروه أن يطمئنها ويؤكد لها، بأحاديثه الرقيقة وقبلاته العذبة ومداعباته الناعمة لفخذيها وخاصرتيها، أن ملامسة الشفاه واللسان والأصابع لن تسبب لها ضيقاً أو إزعاجاً وبذلك يستطيع أن يقودها، بكثير من الحب والحذق، إلى الاستسلام لهواه، فلا تهاب منه احتكاكاً ولا يخشى منها رفضاً. أما إذا ما استمرت تبدي بعض التحفظ فعليه أن يسارع إلى التغلب على ذلك فيشرح لها، بكثير من المراعاة والمداراة «فنون الاتحاد الجنسي»، مع الاستفاضة باعترافات حبه وهواه. إن فضول جسد المرأة الفتي، ورغبته في اكتشاف المجهول، ومخيلتها الفتية

المتوقدة، تدفع بالمرأة إلى قبول الحب والاستسلام له. ويجيء دور تبادل القبلات، منحها وقبولها قبل كل شيء آخر، وذلك وفق تعاليم الكاما - سوترا، عندئذٍ تتحدث الزوجة بلطف مع زوجها، فلا تمنع عنه ملامسة نهديها وتسمح له بـ «عناق الملامسة» ثم تلتصق به بشدة لتنفذ فيه أن صح التعبير، بنهديها ويدعى هذا العناق بـ «العناق الثاقب أو الحاد»...

فإذا ما احتك جسد بتولي بجسد مذكر سمي هذا العناق بـ «العناق المتأرجح أو المتذبذب». وتجذب المرأة أثناء «العناق الضاغط» رأس عشيقها لتحصل منه على قبلة. وما أن يعانقها «وقد تشابك العشيران كما العرائش» تسقط إذاك جميع القيود، ويدخل كل منهما في الآخر، الفم بالفم، العين على العين، والجبهة على الجبهة، عندئذٍ تشرع «عجلة الهوى في الدوران، فليس ثمة قاعدة ولا نظام... لكليهما معاً وفي كليهما.

هذه الجملة، في الـ «كاما - سوترا» تختم «فن العناق» وهي تعني: أن هوى العشاق يجد أساليبه الخاصة في الكاما. وعليه فإنه لا يلتمس عوناً أو نصحاً ما، مهما كان نوعه، بل يعرف، من تلقاء نفسه، أن يبلغ بالاتحاد الجسدي أقصى درجات المتعة.

بيد أن «العشق يذوي والزواج يبقى». وعلى هذا، فإن الزوجين في حاجة إلى التعلم لكي يستمر الحب ويبقى على أشده. وقد أوردت الكاما - سوترا هذه التعليمات والإرشادات في فصل: «أنماط مختلفة من العلاقات الجنسية» الذي يشرح للنساء طريقة معالجة الصعوبات الشاقة وتجاوزها، تلك الصعوبات التي تتأتى عن تباين بنيتي العشيرين. وهكذا فإن على المرأة الظبية الانسجام مع الرجل غير الأرنب، إن هي تبنت «الوضعية المفتوحة» وبكون المهبل واسع الفتحة. أما «الوضعية المغلقة» فإنها تسمح للمرأة الفرس أن تحتجز في مهبلها قضيب الرجل الأرنب، وتسمى هذه الوضعية أيضاً وضعية «الفخذين المضمومين». وعلى هذا فإن لكل وضع صالح لاستثارة اللذة الجنسية وتأجيجها تسمية خاصة به متناسبة معه، فإن اتحدت المرأة المتكئة على جدار أو عمود بالرجل وهي واقفة، دعيت هذه الوضعية بـ «وضعية الاتكاء أو الاستناد»، أما إذا استقبلت عضو الرجل وهي جاثية على ركبتيها ثم انحنت إلى أمام فتكون قد شكلت وضعية «البقرة».

وقد تضمنت الكاما - سوترا أيضاً توجيهات دقيقة تعلم المرأة ما ينبغي لها القيام به إن هي تبنت، في الجماع، دور الزوج، فإن كان متمدداً على ظهره: ينبغي لها إذن أن تمسك به «كما الكماشة» أو أن تروح عنه بحركة «القارب» إذا ما ارتفع بجذعه. أما «الاتحاد الفموي» القائم على تقبيل الرجل لـ «يوني - المهبل» أو تقبل المرأة للـ «لينغام - القضيب» فإن الكاما - سوترا لم ينصح به بوجه خاص، بل جاء ذكره مع التعليق الوحيد التالي: من الممكن أن «يقوم الطرفان بهذه الأشياء أو أن يمتنعا عنها «وذلك تبعاً لذوقهما ومزاجهما، إنه لعمل حميم».

«فلا تصلح مختلف أنماط ملذات العشق في كل وقت أو لأي كان، بل إن لكل نمط منها وقتاً مناسباً ومكاناً محدداً». وتعدد الكاما - سوترا كل أوضاع العشيرين الممكنة وتختم ذلك بأبيات الشعر التالية: «بمقدور البارعين من الرجال والنساء تنويع أنماط جماعه باستلهامهم واسترشادهم بأمثلة من تزاوج مختلف الحيوانات والطيور. بما يتناسب وذوقهم الشخصي. إن مختلف أنماط الجماع هذه تستثير قلوب النساء إلى الحب، وتستحثهن على طلب الحظوة والصداقة والمحبة».

وينبغي للزوجين، إذا ما أصبح كل منهما ملكاً للآخر، في حب حميم أليف «أن يذهبا إلى حجرة النظافة وبيت الخلاء، باحتشام، ودون أن ينظر أحدهما إلى الآخر، ليعودا، من ثم، إلى السرير أو إلى مستشرف المنزل، يقضمان قطعة من الحلوى أو يرشفان كأساً من عصير الفواكه المنعش وهما يتبادلان أحلى الأحاديث وأعذبها. وللرجل أن يُري زوجته، إذا ما أسندت رأسها إلى صدره، ما في السماء من كواكب ونجوم.. نجمة الصبح.. ونجم القطب.. والدب الأكبر».

ولشد ما أسهم هذا الوصف الرومانسي، لما جاء في قصيدة الحب الزوجي الغزلية، في انتشار الكاما - سوترا وشعبيتها، إنها حقاً، نهج حب ونمط حياة، يتمناها الآباء لبناتهم، وفيها أيضاً ما يرغب الرجال في نواله من نسائهم من تدليل، وما تتمناه النساء، من الرجال، من تدليع. بيد أن الكاما - سوترا، على الرغم من ذلك، لم تَرُدَ إلى الزوجات في الهند ما كانت الفيدات قد سلبتها منهن من حقوق قديمة، فهن، والحق يقال، يُدْعَين سيدات البيت لكنهن، في الحقيقة لسن سوى أسيرات للحب ومُسْتَرقات لوفاء زوجي غير مشروط، فإن حدث وانتهكن الأمانة الزوجية طُرِدْنَ من منزل جملنه بالحب وَزَيَّنهُ بالهوى، أما هن فعليهن، بالمقابل، ألا يتمردن أو يعترضن إن عاند أزواجهن وأبوا إلا أن يلهوا مع خليلاتهم أو مع نساء أخرياتٍ مستعداتٍ للاستسلام «لرجال يروقون للنساء».

لم يكن كتاب فاتسيا يانا وقفاً على النساء الشرعيات فحسب، بل نراه في السوترا يتعرض بالوصف أيضاً إلى السلوك الخاص بكل من النساء والرجال الجائعين والتواقين إلى التمتع خارج الزواج، فمنح تعاليمه مشجعاً كل امرأة وكل رجل متشوق إلى الإسهام في الكاما. كما خص بحديثه الخليلات، ذلك أن الزبون يتمنى أن يجد عندهن إلماماً بمبادئ مهنتهن وقد حصلن على كافة أشكالها وصورها، البسيطة منها والرفيعة المستوى، فمن المحتم عليهن، وهذا أمر بديهي، أن يَكُنّ «خبيرات» في فنهن، كما كان لا بد لهن أيضاً، من أجلهن ومن أجل زبائنهن، من أن يعرفن جميع أشكال آداب السلوك، ثم أن الحظية الماهرة الظريفة تعرف تمام المعرفة أن تقدر أيضاً «ما في الإنسان من خصال ومزايا أخرى»، كما قدرت ما في الثروة من فوائد لا ينبغي الاستهانة بها. وينبغي لها أن تتصرف بطريقة تدفع بعشيرها إلى أن يعزو فورات حبها وهواها إلى رغبتها وشهوانيتها لا إلى جشعها وطمعها. وعليها أن تبدي للأشخاص، ممن يستطيعون مساعدتها ورعايتها، صداقتها ومودتها دونما استغلال أو طمع... وعليها أن تصون مكانتها، فتمسك عن الكلمات

السوقية وعن القهقهة، وأن تمتنع عن كل اتصال بالرجال المرضى أو الغلاظ، والسيئي الظن، والقساة، والجشعين والنصابين.

وعلى الرجل، بالمقابل، أن يكافئ خدمات خليلته بما يتناسب وثروته، وطبيعة العمل الذي قدمته له. أما النساء الأخريات، ممن يرغب في الفوز بهن، فعليه أن يقترب منهن بحذر ودراية، مع مراعاة بالغة لميولهن وأفكارهن. وتقدم الكاما - سوترا، لمن يسعى وراء المغامرة من العزاب والأزواج، قائمة بـ «من يسهل الفوز بهن» من النساء، وقائمة أخرى أيضاً بمن يتحتم عليهم تجنبه منهن، ذلك لأن في أزواج هؤلاء النسوة نقائص وعيوب، بدءاً من الوساخة وانتهاءً بالغيرة، وبدءاً من الخِسَّة والجبن وانتهاءً بالطيش والضياع، وبدءاً من العجز الجنسي وانتهاءً بسرعة القذف والتهيج القصوى، تلك الصفات التي «تُكَدِّر النساء».

فإن قاومت النساء، أحياناً، محاولات تقرب الرجال منهن، فذلك، حسب اعتقاد الكاما - سوترا، ما جاء إلا بدافع من حبهن لأزواجهن أو مراعاة لعائلاتهن وأطفالهن، وبخاصة، لخشيتهن من اكتشاف أمرهن، أو لارتيابهن في أن الرجال لم يحاولوا التقرب منهن إلا بتحريض من أزواجهن، لامتحان إخلاصهن واختبار وفائهن.

حرر النصوص، التي اعتمدها فاتسيا يانا، البراهمة الذين يتوجهون بكتاباتهم إلى البراهمة دون غيرهم، أما الكاما - سوترا فلا بد لها، لمقاومة تعاليم البوذية حول بطلان الوجود الأرضي، من أجل أن تصل إلى جميع الطبقات وتدركهم.

وقد سيطرت المتعة المنتصبة كما العقيدة، ليس فقط، على نمط حياة الأغنياء من الهنود الذين كُرست هذه الدروس في الأصل لهم، بل سيطرت أيضاً على نمط حياة أفراد الطبقات الدنيا الذين يستطيعون الإسهام في الكاما كما أسهم فيها أصحاب الامتياز بالولادة.

فغدت، قواعد اللياقة والأحكام المحددة لآداب السلوك مع القريب وفي العلاقات الجنسية، والأوصاف المرتكزة على اختبار المتع المباحة والممنوعة ومراقبتها، خيراً مشتركاً عَمَّ جميع الطبقات والأفراد ممن يرغبون في التمتع بالحياة. إن كل شخص يمتثل للكاما - سوترا لن يرتكب خطيئة ولا إثماً ضد الدين. وقد بارك البراهمة العملية الجنسية، شريطة ألا تُمارس بالقرب من أحد المعابد، وبخاصة، في داخلها، كما راق لهم (أي البراهمة) الرجال الذين يحافظون على مظهرهم وظرفهم، والذين يَسْمون بفن الحياة إلى رتبة الفضيلة وقد استسلموا، كلياً، إلى مسرات الحب ولذاته.

إن الانقسام الصارم إلى طبقات، الذي أوجده البراهمة وفرضوا على الجميع، دون رحمة أو شفقة، احترامه والتقيد به، لم تتهدد سلامته أو يتعرض للخطر قط إن تقيد الرجال والنساء معاً، بالكاما - سوترا في حبهم وعلاقاتهم الجنسية. وقد شجع الكهنة طقوس عبادة الكاما إلى حدٍ بلَغَ فيه المهبل والقضيب «اليوني واللينغام» المعبودين الأثيرين في أوساط الشعب. فقامت النصب التي اتخذت شكل الـ «لينغام» على جانبي الطرق، ونحتت على واجهات المعابد الكبرى الحجرية دروس اللذة

الشبقية، لكي تُبلِّغ رسالتها إلى جميع الرجال المتشوقين إلى المعرفة وإلى جميع الفضوليين والمتفرجين، ولكي تشدد من إيمانهم في أصل الجماع وغايته الإلهية.

كملة أخيرة لا بد منها نختتم بها الحديث عن الكاما - سوترا، ونعرض فيها بالتفصيل لما في كتاب الحب هذا من معان فلسفية، قد تغيب عن مدارك غير المطلع على ثقافة الهند وتراثها ومعتقداتها، وقد جاءت هذه الكلمة، بقلم الكاتب: MARC DE SMEDT توطئة لكتاب الـ «كاما - سوترا» الصادر عن «SOLAR» - المترجم.

الكاما - سوترا هذا النص المقدس:

كاما - سوترا: هذا الاسم الذي يبعث فينا، على الفور، تذكارات شبقية خفية، ذلك لأننا نعتقد، لا بل ونعرف، حتى لو لم نقرأ كتاب الحب هذا، أنه يعني بحثاً يتناول مختلف أوضاع الحب التي سجلها التقليد الهندي وفهرسها. إن الكاما - سوترا، بالطبع، بحث في الحب دَوَّنَه، نحو القرن الثالث للميلاد، أحد البراهمة: فاتسيا يانا الذي تناول، بالبحث والتكثيف والتلخيص، تعليماً هندياً قديماً بنصوصه الباطنية المقدسة التي تناقلها الهنود، يوماً بعد يوم، عبر طقوس نظمت العلاقات بين الناس.

غير أن مفهوم الحب ومعناه في هذا البلد، الذي ازدهرت في ربوعه إحدى أعظم الحضارات على كوكبنا الأرضي، لم يقتصر، بالطبع، على بعض حركات الجسد والتواءاته التي يمكن أن نلاحظها، في سلوكنا الغرامي. ذلك لأن حركات العشق هذه ليست، في جوهرها، إلا تتويجاً لمشهد حب حقيقي بكامل أجوائه، تتحدث فيه العيون والأيدي والعطور والألوان والحلي والشعر والموسيقا وعدد من الصور الأخرى، معبرة عن العواطف بجميع خلجاتها والرغبة بكامل درجاتها والتودد وتنويعاته الحاذقة. أضف إلى ذلك، أن الكاما - سوترا (حِكَمٌ حول الحب) قد اندرج ليحتل مكانه، في صميم نص ديني هندي يُسدي إلينا النصح والإرشاد لبلوغ اتحاد منسجم يقوم بين الأفراد في المجتمع، من جهة، وبين الكائنات والنظام الكوني الشامل، من جهة أخرى، بتوجيه من كوكبة الآلهة الهندوسية التي يرمز كل منها إلى طاقة خاصة به، إنه تيار - قوة يتوقف عليه حسن سير مجموعة نظامنا في المجرة...

وعليه، فإن لهذا البحث علاقة وثيقة بالفيدات التي تندرج في قائمة أقدم النصوص المقدسة التي نعرفها، وتشكل أسس أقدم الديانات في العالم وأكثرها ثراء، بنظرياتها المعقدة في نشوء الكون، وميتولوجيتها الغزيرة، وفنونها في التأمل مثل: أشكال اليوغا وتنوعاتها والبرانياما PRANYAMA (مراقبة التنفس والتحكم به)، دونما إغفال لقانون الأخلاق المولوي SEIGNEURIAL والبراهمية، ونظام الطبقات، وقد تبين أن العلاقات ما بين الآلهة والبشر في الهند، غير قابلة للفكاك ما دامت تشكل جزءاً من لحمة نشوء الكون نفسها: الروح الفردية «اتمان» والروح الكونية «براهمان» تشكلان كلاً واحداً، إنهما وليدتا خلق واحد. ومع ذلك فقد اشتقت كلمة يوغا من ويغ: رابطة، ربط، نير، وإن مبدأ التمرينات التي تقترحها تهدف، تماماً، إلى ربط الكائن بالطاقات الكونية.

أسطورة الخلق:

فما هو إذن دور الحب في كتاب كهذا؟ إن الحب، هو أيضاً، حاضر في كل مكان، ذلك لأنه بانعدام الرغبة، الوجود البدئي، لم يكن لِبراجاباتي (بوروشا - بدء كل شيء) أن يرغب في إنسال الخليقة... بوسعنا أن نذكر هنا إحدى هذه الأساطير المسلية ذات النصوص المتعددة المتنوعة:

«في البدء كان هذا الكون عدماً فيما عدا
«النفس»
على هيئة إنسان. فتطلعت حولها ورأت أن
لا شيء عداها، فكانت صيحتها الأولى:
إنه أنا.
ثم أدركها الخوف من الوحشة، لكنها فكرت:
إذا لم يكن ثمة غيري، ففيم خوفي؟
ومن ثم رحل الخوف
لكنها كانت مع هذا لا تزال مفتقدة البهجة
(تماماً كما نفتقد البهجة في وحدتنا)
ومن ثم احتاجت إلى رفيق.
حسناً، هذا الكون، هذه النفس،
كان في حجم رجل وامرأة متعانقين، ومن ثم
قسمت النفس
ذاتها إلى شطرين، الجزء الذكر، والجزء الأنثى
من النفس أو من الكون
ثم عانق الذكر الأنثى، ومن هذا العناق ظهر
الجنس البشري.
وسألت الزوجة نفسها قائلة:

كيف استطاع مضاجعتي بعد أن أخرجني من نفسه
فَلأَخْتَفِ
واختفت في صورة البقرة
وانقلب هو ثوراً، فزواجها
وكان بازدواجهما أن تولدت الماشية
فاتخذت لنفسها هيئة الفرس
واتخذ لنفسه هيئة الجواد
ثم أصبحت هي أتاناً
وأصبح هو حماراً
وزواجها حقاً

وولدت لهما ذوات الحوافر، وانقلبت عنزة فانقلب لها تيساً، وانقلبت نعجة فانقلب لها كبشاً، وزاوجها حقاً، وولدت لهما الماعز والخراف، وهكذا حقاً كان خالق كل شيء، مهما تنوعت الذكور والإناث، حتى تبلغ في التدرج أسفله إلى حيث النمال، وقد أدرك هو حقيقة الأمر قائلاً: «حقاً إني أنا هذا الخلق نفسه، لأني أخرجته من نفسي، من هنا نشأ الخلق» (في هذه الفقرة الفريدة، نلمس بذرة مذهب وحدة الوجود وتناسخ الأرواح، فالخالق وخلقه شيء واحد، وكل الأشياء وكل الأحياء كائن واحد، فكل صورة من الكائنات كانت ذات يوم صورة أخرى، ولا يميز هذه الصورة من تلك ويجعلها حقيقية، إلا الحس المخدوع، وإلا تفريق الزمن بينهما. من قصة الحضارة - المترجم).

كما هو الحال في جميع النظريات التي تناولت نشأة الكون فإن رغبة بدئية، إرادة الخلق، تكمن في أساس عالمنا وأشكاله وكائناته. إن كل جزء من هذا الكل يرتبط بالآخر على شكل سلسلة حيوية وصبغية، وخلوية، تلك هي الحياة. حياة يستحيل وجودها بانعدام الرغبة في الحياة والأنسال وفي استمرارية سلسلة التطور. ففي أساطير هندية أخرى نجد تصويراً لبيضة ذهبية تطفو فوق مياه العدم فتخصبها وبذلك يبرز الوجود. ولكن أياً كانت النصوص والروايات المختلفة المقترحة، فإننا نرى، دائماً في حركة التكوين، نوعاً من اللعب الجنسي يدور بين كيانين يتمم أحدهما الآخر. احتكاك مولد الحرارة، وولوج، وتمخيض، (واحدة من أقدم الأساطير تستخدم هذه العبارة: الجبل الأصلي ماندارا» «يمخض» محيطاً من حليب لا نهاية له)، هناك، على الدوام، صورة لاتحاد ما، وتنافذ مُخْصِب يُحوّل (الزوجين) إلى طاقة جديدة: ١+٢=٣، إن تكاثر الأعداد هذا، يمكن أن يتواصل إلى ما لا نهاية انطلاقاً من هذا البدء. ومع ذلك، فمن الغريب، كما نلاحظ، أن جميع هذه الأساطير لا تطعن

بنتائج العلم الحالية، ذلك العلم الذي يرى الحياة تُولَد في نهاية عملية كيميائية وكهربائية على سائل من جزيئات المحيط (الأوقيانوس) الأصلي.

ثم أننا نجد، على الدوام، ثلاثة من الآلهة الرئيسة تنجح في إرساء سلطانها وسيطرتها على جميع الآلهة الأخرى وعلى الكائنات والطبيعة: وتشكل ثالوثاً «TRIMURTI» كيان الانبعاث والطاقة الروحية الحقيقية - يتألف من: الخالق براهمان، والحفيظ فينشو، والمدمر شيفا: وهكذا فإن حلقة الولادة والحياة والموت، الحاضرة في جميع مراحل حياتنا وفي جميع المواقف، تجد كامل تحققها وتَحْكُمُ الكل. وترافق كل إله من هذه الآلهة شاكتي - SHAKTI التي تمثل، في آن واحد، قرينه المؤنث وسلطان تجليه. وهذه «الأمهات الإلهية» هي محط احترام الهنود جميعاً، وعليه فإن كل امرأة تُعَدُّ تجسيداً لهن، إذ تستطيع أن تكون، من تلقاء نفسها، الأم، والوالدة المكونة، والمكان، والوسيلة، وملاذ الخلق واستمراريته. وهكذا فإننا نلاحظ مدى ما تتسم به علاقة الحب، في الكاما - سوترا، من احترام، والدور الذي يلعبه الحب في ربط الروح والمادة برباط لا ينفصم.

أن كل ما في الثقافة الهندية من روحانية موسوم بالجنس والعشق، غير أن العشق هنا قد تحول طبيعياً، إلى نظام منطقي، فلم يصبه ما أصابه في الثقافة الغربية من كبت وإبعاد. أن اللينغام «ذكور حجرية» واليوني (الفروج)، التي تعد بعشرات الملايين، هي محط احترام الجميع في كافة أنحاء شبه القارة الهندية: احترام العضو الخالق والرحم الحاضن، علة الحياة ومصدرها.

وقد اشتهر كرشنا، المجسد لفينشو، والإله المفضل في مجمع الآلهة، بغرامياته مع الـ «غوبي» معبوداته من الراعيات الأسطوريات، إذ كان يعلمهن فن الوصال الحقيقي مع الجوهر الإلهي، ذلك الوصال الذي يسمو بالحب الجسدي من طريق ممارسته. لقد سحر الراعيات واحدة إثر أخرى، فرقص ولعب معهن وأحبهن جميعاً، فإذا به في آخر المطاف، يختفي بعد أن ظنت كل واحدة منهن أنها امتلكته. مبيناً لنا أن الوهم هو الذي يسوس الحياة وأن على العاشق المثالي، أن يتجاوز رغبة الامتلاك وأن كل شيء ليس سوى لعبة (ليلا - LILA) حتى إن الأشكال الحية ليست إلا انعكاسات للعبة إلهية.

مجدت الهندوسية الاتحاد الجنسي في الزواج وخارجه سواء بسواء، شريطة ألا يرى العشيران في نفسيهما وفي مسرتهما إلا لعبة للطاقات، الإلهية في جوهرها، حينئذ يستنسخ عمل الحب ولادة السيرورة البدئية لخلق العوالم، ذلك لأن المبدأ المذكر هو الذي اتحد مع متممه، الشاكتي، المبدأ المؤنث.

ويلي الاتحاد العشقي هذان التحولان في الجسم والنفس معاً، إذ يقرن الرجل والمرأة شرطهما بـ «الفعل» الذي يمكن، بل، ينبغي له أن يدوم طويلاً، وأن يظهر بكافة الأشكال والصور التي يهبها للعاشقين، المرأة تمنح الرجل ما فيها من متعة، والرجل يمنح المرأة ما فيه من قوة، تلك القوة المنتشرة فيها لا الصادرة عنها. وتشدد النصوص على حقيقة أن: «من ثَبَّتَ روحه بوحدة اللذة وهويتها في حالتها الفطرية يصير ساحراً

في الحال، لا يخشى الشيخوخة ولا يهاب الموت. يقول كأنها: إن نحن تَبَتْنَا في مدخل النفس قفلاً متيناً، وإن جعلنا من الروح، في تلك الظلمة الموحشة المريعة، قنديلاً، وإن لمست جوهرة جينا (JINA) هناك في الأعالي، أقاصي السماء، نبلغ، من ثم، النرفانا ونحن نتمتع بالوجود.

والواقع أن النصح للرجل بعدم توزيع بذاره الذكرية (على الأقل بطريقة التكرار) هو قاسم مشترك تنادي به كافة مؤلفات الحب في الشرق: للرجل الحق في صيانة حيويته بعدم هدرها دونما جدوى، وللرجل الحق أيضاً في اكتساب السيطرة على الذات، وفي امتلاك قدرة ذاتية أوسع على النشاط والفعل، وفي التمتع بطاقة نفسية وجسدية تزداد نمواً وثراء، وفي أن يبلغ، أخيراً، حقيقة اللحظة، من الآن.. إن تلبية رغبة شريكته التي تتفجر حول القوة الجنسية المذكرة الشديدة الصلابة، والتي تمجد معدنه الداخلي، اتحادٌ وانصهارٌ، في وحدة خارج الزمن، ينطلق فوق ساحة الوعي العليا: ليحتويه «فراغ» الشريكة، لأن لحظة التركّز المطلق هذه التي عليها، بل كان يتحتم عليها، أن تكون الحب الجسدي، هذه اللحظة من التواصل التي يتلقي فيها كائنان، هي من أكثر اللحظات إجلالاً في الهند التقليدية: ففي لعبة واحدة تلتقي القوى المتناقضة المتكاملة، فيما وراء الفكر وأبعد مما يمكن أن يخطر على بال، في رقصةِ بداية الخلق الكونية ذاتها. إنها إسهام في حركة العالم، واتصال مع سورة الحياة واندفاعاتها، ومرحلة من مراحل معرفة الذات والكون.

وفي الفترة نفسها، تلك الفترة التي شهدت ظهور الكاما - سوترا، نمت في الهند، فوق الموروثات والذخائر الفيدية القديمة المقدسة وتقنياتها في التجلي والإثارة، جذور حديثة ونظريات جديدة في التطبيقات العملية التي أثمرت يوغا جنسية حقيقية، ألا وهي: التانترية[1] TANTRISME إن اللاحقة «ISME» المضافة في آخر كلمة «TANTRA» تستثير فينا البوح والامتداد: بقدرات الجسد ومزاياه ووجدان الروح وسريرتها. وثمة نص من نصوص التانترية يفصح موضحاً لنا: «على الإنسان أن يسمو باستخدام علة سقوطه» ومن الممكن أن تكون، مظاهر الطبيعة الإنسانية نفسها، تلك المظاهر التي تكبلنا وتمنع انطلاقتنا، مثل الحجارة في أركان تحررنا وذلك لأن الدوافع الجنسية، في اقتراب بلغ هذا الحد، تصير دربا سالكاً أمام الحقائق الكونية، نهتدي به إلى وحدة النهائي واللا نهائي. وقد أدت شعيرة الأسانا (الأوضاع الجسدية ASANAS) التانترية في تطويرها إلى ولادة سلسلة مثيرة من الاختبارات النفسية

١- التانترية: ترجمة الدكتور علي زيعور في كتابه الفلسفات الهندية بالطانطرية - والتانترية انضباط ديني مشتق من تانترا. وهي عبارة عن كتيبات دينية عملية لممارسة الطقوس - المترجم.

الجسدية التي ارتقت بنموذج الانضباط فانتهى، بدوره، إلى التأمل. ففي فعل الأسانا وضع جسدي يتحد الرجل والمرأة. وفي تجربة اللذة واختبارها يكمن تحقيق الأسانا. ويذهب المريدون، أثناء الاتحاد الجنسي، بوعيهم بعيداً عن المحيط، إذ تتوق الروح إلى أن تكون حرة، ويزيد الكبح والاحتجاز في شدة الطاقة الجنسية وحِدَّتَهَا، ويحملها على التوهج إلى حد يتحرر فيه الفيض النفسي من قمقمه.

يهتدي الإنسان بوساطة التانترا أساساً إلى طريق التحكم بالطاقة الجنسية لبلوغ غاية روحية، وتعلمه تقصي أحاسيسه وسبر غورها أفضل مما تعلمه كبتها وقهرها.

تلك هي المظاهر العشرة (الدرجات العشر) للرمزية التانترية التي آلت إلى شاكتي: الطور الأنثوي للطاقة الكونية:

١- كالي KALI قوة الزمن وسلطانه.

٢- تارا TARA، قوة الراحة والتسلية.

٣- سوداسي SODASI، الأشكال الستة عشرة لتجسيد الرغبة.

٤- بهوفانِسفاري BHUVANESVARI، قوى العالم المادي الجوهرية.

٥- يهايرافي BHAIRAVI، التعدد في أشكال وكائنات لا نهائية.

٦- شينَّاماستا CHINNAMASTA، موزِّعة الطاقة الحيوية في الكون.

٧- دهوماباتي، أو دوماباتي DHUMABATI، شريكة الرغبات غير المروية.

٨- باغالا BAGALA، مدمرة القوى السالبة.

٩- ماتانجي MATANGI، القدرة على السيطرة.

١٠- كامالا KAMALA، حالة الوحدة المشكلة ثانية.

وتفصح التانترية موضحة باستمرار: أن أولئك الذين استسلموا للحب لأسباب شبقية محضة قد أفسدوا طاقتهم الحيوية بل قد يتعرضون، بفعل ذلك، لفقدانها. في حين أنهم لو استسلموا إلى المتع الجنسية بوعي حاد وألفة روحية (انتخابية كما يقول غوته) تؤلف ما بين قلوبهم، وإن هم نبذوا لعبة الأنا، لأخذ فعل الحب، عندئذٍ، بعده الحقيقي التحرري المبرأ، ولأمكن لوعي الوحدة الوجودي، عندئذٍ فقط، أن يسفر عن نفسه وأن يحقق ذاته بواسطة هذا الإثبات المعلن من خلال كافة أشكال التصوف:

«ليس ثمة فارق ما بيني وبينك»

إن ما يثْهونا، يوغا الحب، هي التي تسمح حقاً:

- باستشارة الكونداليني[1] وبعثها، هذه الأفعى الملتفة، رمزياً، في أسفل العمود الفقري على شكل طاقات كامنة في متناولنا، فتعمل عملها، في عمودنا الفقري (هذا المحور الحيوي) وفي أعصابنا دون رقيب.
- وبمعرفة استخدام تنفسنا الحيوي (برانا) الذي هو الكون نفسه.
- وبأن نذوب في الآخر.
- وبأن نموت في داخلنا، أيضاً، لنبعث للحياة من جديد بوعي يقظٍ ومتعاظمٍ.

وهكذا نجد أن العمل الجنسي غير مهمل في ظل اللا وعي وتخيلاته الوهمية، بل هو، على العكس من ذلك، موضع إجلال وإكبار، وقد سَلَّط عليه ضوء عرف كيف يكشف عما في كافة أوجهه، التي لا تعد ولا تحصى، من قيمة. فالكاما - سوترا، إذن، يرغب في أن يكون قبساً ينير للآخرين، ودليل تربية، ينسجم مع نوع محدد من المجتمعات. إلا أنه بوسع رسالته تلك أن تهبنا الكثير: رهافة الإحساسات والعواطف، وعذوبة اللذات الاستهلالية، وتنويعات الأوضاع المشتركة التي ترسم لذة جمالية حقيقية. أنه رومانسية المتعة تبلغ كامل مغزاها ومعناها بامتزاجها في منمنمات رائعة.. إنه بحث في الحب.

١- الكونداليني: غدة في أسفل العمود الفقري ملتفة، يشبهها اليوغيون بالأفعى - المحرر.

العاشـقان

رمز مقدس، اللينغام...
ويمثله الهنود نحتاً وتصويراً
في جميع أقاليـم الهنـــــد

كالي السوداء: الدموية المفترسة،

تدوس الكون في رقصتها المقدسة (من شمال الهند)

القبلة